في المعركة

فتحي رضوان





مختارات الإذاعة

فى المعركة

فتحى رضوان



فهرس الموضوعات

صفحة

ماذا حدث في مصر في ٢٦ من يوليه ١٩٥٦ ؟

أحدث خرق للقانون الدولى ؟! أم اعتداء على المعاهدات المبرمة بين الدول فى حرية واختيار ؟! أم تهديد لحرية الملاحة فى أحد الممرات البحرية العالمية ؟ أم حدث إجراء عادى طبيعى يقع فى نطاق حق الدول ذات السيادة الصغيرة منها والكبيرة، المسلحة التى تباهى الناس بدباباتها وطائراتها ، والعزلاء التى لا تجد ما تدفع به عن نفسها إلا إيمانها بحقها ، أو رحمة الدول الكبرى بها ؟!

الواقع أن ما حدث فى ٢٦من يوليه ١٩٥٦ ، هو أكبر عمل دولى شهدته هذه الدنيا منذ أكثر من قرنين ، أى منذ تشابكت علاقات الدول ، وأخذت طابعها العالمى ، ومع ذلك فإن هذا الحدث الضخم الهائل هو أكثر الأحداث انطباقا على حقوق الإنسان ، وأعظمها بساطة ، وأشدها التزاما للمعاهدات الدولية السليمة ، فليست ضخامته راجعة إلى ما حدث بعد وقوعه من ضجيج ، ولا لما انطوى عليه من مخالفة للعرف الدولى ، أو لتحديه الدول الكبرى ، بل إن ضخامته وعظم قيمته وعمق أثره فى أنه من قبيل دعوة محمد رسول الله إلى

الإيمان بإله واحد ، ودعوة السيد المسيح إلى الإيمان بالحب ، فإن الرسل جميعا لم يقولوا إلا كلاما بسيطا ولم يقولوه إلا فى هدوء ودعة ، ومع ذلك فقد كان هذا الكلام أخطر ما سمعته أذن الإنسانية ، وأعظم ما وصل إلى قلبها ، وما تسرب إلى إيمانها .

وقد كان محمد رجلا فقيرا لا سند له ، ولم يكن عنده سلاح ، ولم يكن من خلفه حليف يحمى ظهره ، ومع ذلك فقد كان وقع كلامه على الأقوياء آلم لهم من وقع صليل السيوف ، وصهيل الجياد ، ورشق السهام ؛ ذلك لأن الأقوياء كانوا يعلمون أن محمدا يعلن قانونا من قوانين الحياة الطبيعية ، وأنه لم يكن يعطل سير هذا القانون ، بيد أن جهل الناس وخوفهم حجبه عن عقولهم وقلوبهم ، فلم يفيدوا منه ، ولم يتأثروا به . فإذا وجد من يعلنه للناس ويرفع عنه الحجب فإن أضواءه ستنفذ من سحب الخوف والتضليل ؛ لذلك لم يكن جمال عبد الناصر فى حاجة إلى أن يعلى صوته ويصرخ صراخا شديدا وهو يعلن تأميم قناة السويس وإعادتها إلى مصر وإطلاق يد المصريين فيها .

إنما كان فى حاجة إلى ما يشبه صوت الرسل الوادع الهادئ الذى كان يردد قوانين الحياة من قبل : ﴿ يَـٰأَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا ، إِنَّ

أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُمْ[1] ﴾ ومن قبل : « أحبوا أعداءكم » فإن العمل الذى يقوم به جمال عبد الناصر فى تأميم قناة السويس ليس إكمالا لإجلاء قوات الإنجليز عن مصر ، بقدر ما هو إكمال لرسالة الإسلام والمسيحية معا ، وتطبيق لدعوة المساواة بين الناس والإخاء بين الأمم والتعاون بين الدول ونبذ القوة والعنف فى المعاملات بين الشعوب . إن ما فعلته مصر فى ٢٦ من يوليه ١٩٥٦ هو أول تحقيق عملى لميثاق هيئة الأمم المتحدة ؛ فإن شركة قناة السويس واحدة من وصمات العار فى تاريخ الحضارة الحديثة . إن صفحات تاريخها وما انطوت عليه من استغلال ورشوة ونصب واعتداء على حقوق الأمم والأفراد لجزء من تركة قبيحة كان على الإنسان أن يطويها ، وأن يقيم على أنقاضها صرحا جديدا من صروح العدالة الإنسانية فى أجمل صورها .

والذين يعرفون طبائع الناس وما انطوت عليه نفوسهم من ضعف وسوء ، إلى جانب ما تتحلى به من إشراق وتجرد ـ يدركون أنها لا تستطيع أن تتخلص من الماضى بعيوبه وآثامه إلا إذا دفعتها يد قوية لتنزعهم من ربقة أنفسهم ، ولتحررهم من قيد ماضيهم .

وقد كان مستحيلا على الدول الكبرى أن تنزل عن هذه السيطرة

(١) سورة الحجرات .

المعتدية التى سميت شركة قناة السويس ، فإن ما يقال بأعلى الصوت وملء الفم عن ميثاق هيئة الأمم المتحدة ، وعن المساواة بين الأفراد والشعوب ، كلام سهل عذب ، حلو الوقع فى الآذان والنفوس ، ولكن تكذبه كل يوم مذابح هنا وهناك ، وعدوان على الشعوب والجماعات ، ومماطلة فى أداء الحقوق لأصحابها : تكذبه ما يلقاه إخواننا فى الجزائر : يكذبه ما يلقاه الهنود والملونون فى جنوب أفريقيا : يكذبه مليون مشرد من أهل فلسطين ...

ولو تركت الإنسانية فى هذا الذى تتردى فيه لهبطت فى دركات متتابعة نحو عالم أسوأ نظاما وأكثر ظلاما ، وأعظم إيمانا بالظلم والعدوان ؛ ولذلك كانت الإنسانية فى حاجة إلى يد تعيدها إلى الطريق المستقيم . وكانت اليد الهادية يد مصر .

ولقد صرخ مجتمع مكة الارستقراطى الذى بلغ عدد الرقيق فيه أكثر من عدد الأحرار ، صرخ صرخات الكراهية والاحتقار حينما كان محمد بن عبد الله يقول بصوته الهادىء ، ونور الحياء يشرق بوجهه: « إِنَّمَا إِلٰهكم إِلٰه واحد » . وقالوا عليه : « سارق نياق ، وقاطع طرق وزير نساء » ، ورموه بالجنون و بالكذب ، وحصبوه بالطوب ، ووضعوا فى طريقه الشوك والحسك ، وتآمروا عليه وألبوا القبائل ضده . ولم يطلب

السيد المسيح من الفريسيين والمرابين ، ومن دولة الرومان ، إلا أن يتحابوا ، وأن يتركوا النفاق ، وأن يعيشوا عيشة ملؤها البساطة والتواضع ، فاعتبروه متآمرا ، وعدوه خائنا ، وضاقوا به ذرعا . واليوم يصدر صوت شبيه بصوت محمد يدعو مجتمعا شبيها بمجتمع قريش .. ودولا شبيهة بهيرودس و بيلاطس ، يقول لهم : أحب بعضكم بعضا ، وليعد كل منكم إلى صاحبه متاعه المسروق وماله المنهوب و بضاعته التى يستحقها و يحتاج إليها . فما الذى حدث ؟ انفجر مجتمع المشركين ، مجتمع الفريسيين والمرابين : انفجر المجتمع الذى اتهم محمداً كذبا ، ورموه بالإفك والجنون والضلال بمثل هذه الصرخات المحمومة . قالوا عن جمال عبد الناصر : إنه الدكتاتور الصبي ، إنه مقامر مغامر ... إلى آخر القائمة التى كنا نظن أن قواعد الصحافة الرفيعة لا تأذن بها ، ولا ترضى عنها . وقد كنا نسمع دائما أن هدوء الطبع ، و برود المزاج ، وضبط النفس من فضائل بعض السادة الذين يحكمون الناس ، و يعلمون الرجل الأسود والأسمر والأصفر والأحمر ، الأخلاق الفاضلة ومزايا الحضارة الأورو بية .

وقد كنا تعلمنا من بعض الدول ما يسمونه « قواعد اللعبة » . وكانت تلك الدول تباهى بأنها مهما اشتدت الظروف وادلهمت الخطوب

واكفهرت السماء تلتزم قواعد اللعبة بشرف ، ولا تخرج عنهـا أبدا . فهل من قواعد اللعبة أن تسب الصحف الوقورة رئيس دولة كانوا حتى الأمس يزعمون أنهم يودون أن يساعدوا مشروعات التنمية الاقتصادية فى بلده الصديق بالملايين من الجنيهات ؟ !

والحق أنه لا جواب أبدا على هذا كله إلا أن نستذكر الماضى . . أعنى الماضى القديم : الماضى الذى انقضى عليه ١٩٥٦ عاما أو الذى انقضى عليه ١٣٧٥ سنة ،حينما دعا السيد المسيح عليه السلام إلى المحبة، وحينما دعا محمـد صلى الله عليه وسلم إلى الإيمان بإله واحد ، وإلى مجتمع قوى رحيم .

على أن لـكل سخافة ، مهما ثقلت على النفس ، جانبا يرفه عن سامعها ، ويخفف من غثاثتها . ومن ذلك ما يرمى به مجتمع الفريسيين والمرابين : مجتمع يهوذا الاسقر بوطى ـ جمال عبد الناصر : هذا المجتمع الذى يود أن يقيم صليبا لـكل من يقول له كلمة الحق . يقول هذا المجتمع عن جمال عبد الناصر : إنه هتلر . والحق أن وجوه الشبه كثيرة جدا بين جمال عبد الناصر وهتلر ، على الأقل فى رأى الغرب ، ويسرنى أن أقدم بعض هذه الوجوه :

جمال عبـد الناصر يشبه هتلر ؛ لأن هتلر أعدم اليهود ، وطردهم

من ألمانيا على حين أن جمال عبد الناصر يطالب أن يعود اللاجئون الفلسطينيون إلى بلادهم .

جمال عبد الناصر يشبه هتلر ؛ لأن هتلر كان يؤمن بأن التفاوت بين الأجناس المختلفة أساس للحياة ، على حين يدعو جمال عبد الناصر فى باندونج وفى بريونى وفى خطبه جميعها إلى المساواة بين الأمم والشعوب.

جمال عبد الناصر يشبه هتلر ؛ لأن هتلر كان يصرخ طالباً زيادة نصيبه من المواد الخام ومن الأسواق ، ومجالا حيويا لألمانيا ، على حين أن جمال عبد الناصر يمثل الشرق العربى الذى تفيض آباره بثلث بترول العالم ، ومع ذلك فليطمئن الغرب إلى أنه لن يهدد مصالحهم المشروعة فى هذا الشرق العربى . .

جمال عبد الناصر يشبه هتلر ؛ لأن هتلر فتح أوروبا وغزاها ، وفرض سلطانه عليها ، واقتحم باريس واحتلها ، وقسم فرنسا وسامها الخسف . على حين يطلب جمال عبد الناصر من فرنسا أن تعيش مع الجزائريين فى سلام ، وألا تقسمها إلى جزائر للجزائريين وجزائر للأوروبيين ، بعد أن أصبحت فلسطين فلسطينا للصهاينة ، وفلسطينا للعرب .

جمال عبدالناصر يشبه هتلر ؛ لأن هتلر كان يلوح بالسلاح والحديد ؛

ليخيف الدول التى تنافسه ، وجمال عبد الناصر يطلب السلاح والحديد ليحمى نفسه داخل حــدود وطنه من العدوان والغصب ومن التآمر والدسائس .

وأخيرا جمال عبــد الناصر يشبه هتلر ؛ لأن هتلر حرم على أعدائه الملاحة فى البحر الأبيض وفى البحر الأحمر ، وفى المحيط الأطلسى ، وفى كل قناة ، وفى كل مضيق، وفى كل ممر دولى .. وجمال عبد الناصر يدفع التعويض لأصحاب الأسهم فى شركة قناة السويس ، ثم يحمى الملاحة ، ويؤكد لــكل حكومة ولــكل فرد أن حرية الملاحة فى قناة السويس مصونة ، وأن مصر يهمها أن تزدهر وتنمو ، وأن تستمر وتتسع ...

الحق أن العناد يورث الــكفر ، وأن من الغضب مايذهب العقل .

•••••••

من الذى سطر هذا الحدث فى سجل الحياة ؟

لمصر رسالة دأبت على القيام بها على مر الحقب والأجيال ، تلك هى وصل الشرق بالغرب ، وتذليل الصعاب القائمة فى وجه التجارة بين الأمم والشعوب. ورسالتها هذه مستمدة من الموقع الذى اختاره الله لها عند ملتقى القارات ، وعلى مفترق طرق التجارة . ثم إن انبثاق الأديان فيها، واحتماءها بها ، وازدهار الثقافة والحضارة على شواطئ نيلها جعل خدمة الناس والتقريب بينهم ، وتوفير أسباب السعادة لهم، والقضاء على دواعى الخلاف والفرقة بين أفرادهم وجماعاتهم عمل مصر الأساسى ، وواجبها الرئيسى . ولقد سعى الاستعمار سعيا متصلا ليفهم المصريين أولا ، ثم ليفهم العالم بعد ذلك أن قناة السويس التى صدر الفرمان الأول بتأسيس شركة مصرية لحفرها فى ٣٠ من نوفمبر سنة ١٨٥٤ ـ كانت ابتكارا فرنسيا أو غربيا على الأقل فطن إليه دلسبس ، ولم يلتفت إليه أحد من الناس قبله . ولم يكن هذا الادعاء سوى خرافة من الخرافات الكثيرة التى حشا بها مؤرخو الاستعمار تاريخنا ، والتى تجرعناها فيما تجرعنا من سموم الأفكار والدعاوى التى احتواها الطعام والشراب

اللذان أعدّتهما مطابخ الغرب لعقولنا وقلوبنا .

والحقيقة أن البحر الأبيض المتوسط كان متصلا بالبحر الأحمر قبل أن يولد دلسبس ، بل قبل أن تولد فرنسا كلها ، بل قبل أن تولد أورو با قاطبة بنحو ثلاثة آلاف وستمائة سنة ؛ ففى عهد الملك سنوسرت الثالث الذى كان قد ولى حكم مصر فى ١٨٨٧ قبل الميلاد ، ربط البحرين عن طريق فروع النيل القديمة التى كانت موجودة إذ ذاك قبل أن تتجمع فى مجرى النيل الضخم ، وكان مجرى هذه القناة هو نفس المجرى الذى تتدفق فيه الآن مياه ترعة العباسة التى تصل ما بين مدينتى الاسماعيلية و بور سعيد . ولما طمرت الأيام هذه القناة جددها الملك نخاو ، وتم تجديدها فى سنة ٥٢١ قبل الميلاد، فعادت مصر إلى الاضطلاع بواجبها العظيم، فى توسيع نطاق التجارة العالمية وتذليل أسباب القوة للناس ، وفى جمع شملهم ، والتقريب بينهم . فلقد سجل قيام هذه القناة هيرودوت المؤرخ وأرسطو الفيلسوف ؛ كما سجل ذلك أيضا ديدرو و بللنى فيما خلفوه من كتبهم وآثارهم الأدبية .

لذلك لم أستطع أن أمنع ابتسامة ارتسمت على شفتى وأنا أقرأ فى إحدى الجرائد الفرنسية الصادرة فى ٢٩ من يوليه ١٩٥٦ «أن مصر بتأميم القناة تسترد عمل الرأسماليين الذين بشقهم قناة السويس عام ١٨٦٨

غيروا وجه الأرض لصالح التوسع الاقتصادى العالمى » . حقا إن التاريخ من بين ضحايا الاستعمار ؛ وأعظم تلك الضحايا نصيبا من التعذيب والتنكيل ، أما وجه الأرض ، فهو توأم تلك الضحيـة ؛ فالاستعمار يتصور ، ويجب أن يتصور معه الناس ـ أنه غير الأرض لصالح الناس ، وأنه أحال تلك الأرض إلى جنة من جنان الخلد ؛ ولهذا فهو يزعم فى اجتراء مذهل ـ أن الذين شقوا القناة فى سنة ١٨٦٨ قد غيروا وجـه الأرض، وكأنهذه القناة لم تكن وجدت من قبل ، وكأن مصر لم تكن تحمل على صفحة نيلها ، وأكتاف أبنائها ـ بضائع الغرب إلى الشرق ، ثم بضائع الشرق إلى الغرب ، وينسى أبواق الاستعمار أن القنوات التى شقتها مصر الفرعونية ، عادت وهى إسلامية فشقت مثلها فى عهد عمر بن الخطاب ، وقد سميت هذه القناة بخليج أمير المؤمنين . فلا يتسربن إلى اعتقاد أحـد من أبناء مصر هذا الافتراء الذى يردده الغرب ، وليبق أبناء مصر وأبناء العروبة واثقين من أن بلادهم لم تخن أبدا الرسالة الإنسانية التى ندبت لهـا ، ولم تفرط فى الأمانة التى اؤتمنت عليها ، وخلقت لها .

وحينما فـكر الغرب فى شق قناة السويس لم يفـكر أبدا فى صالح التوسع الاقتصادى ؛ فقد كان مشروع القناة مشروعا سياسيا بحتا ،

فكرت فيه فرنسا لتكسب منه كسبا سياسيا بحتا ؛ لذلك قاومت بريطانيا هذا المشروع أبلغ مقاومة . على حين أيدت مشروع مد السكة الحديدية من القاهرة إلى السويس ؛ لأن الشركة التى كانت ستنفذ هذا المشروع شركة إنجليزية ، وفى الوقت نفسه عملت فرنسا أقصى ما تستطيع لتعوق تنفيذ مشروع السكة الحديدية ، وقد نجم عن ذلك أن معدات السكة الحديدية من قضبان وأسلاك وصلت إلى ميناء الإسكندرية ، ثم بقيت ملقاة على أرصفة الميناء فترة من الزمن تلفحها الشمس ، ثم يعلوها الصدأ ، حتى فقدت قيمتها .

فلو أن التوسع الاقتصادى كان هدف الاستعمار ، وهدف الذين شقوا قناة السويس فى سنة ١٨٦٨ كما تزعم جرائد فرنسا اليوم ، لرحبت فرنسا بمشروع سكة حديد السويس ، ولرحبت بريطانيا بمشروع قناة السويس ، ولتعاون الجميع فى إنجاح المشروع ثم تركه بين يدى مصر ، ولكن القصد كان دائما التوسع الاستعمارى ، وكسب مغانم إقليمية أو عسكرية على حساب أمن الناس وراحتهم ورخائهم .

لقد حاربت بريطانيا مشروع فتح قناة السويس حتى اضطر دلسبس إلى أن يسافر إلى لندن ليخفف من حدة معارضة الدوائر

البريطانية لهذا المشروع ، إن لم يستطع كسبها إلى صفّه ، وقد عاد من العاصمة البريطانية دون أن يحقق شيئا من الغرضين ، فالذين يباهون اليوم العالم بأنهم غيروا وجه الأرض لصالح التوسع الاقتصادى كان فريق منهم فى الماضى يجفل من الفكرة بل كان يحاربها ويعمل على إخفاقها .

إلى جانب هذه الحقيقة التى لا يعرفها الكثيرون من أبناء مصر توجد حقيقة أخرى مجهولة على الرغم من ضخامتها ، ذلك أن أوروبا هى التى مولت القناة ، أى هى التى أنفقت على إنفاذ المشروع ، أوهى التى احتملت نفقات الدراسات السابقة عليه ، ثم نفقات المعدات والأدوات التى استعملت فيه ، ومرتبات المهندسين والفنيين الذين قاموا على تنفيذه ، وليس ثمة فرية أضخم من هذه الفرية ؛ فمصر هى التى مولت المشروع تقريبا ، ولم تكن لأوروبا فى هذا الجانب من المشروع ما يستحق أن يذكر ، إذا ذكرت التكاليف والتبعات المالية الضخمة التى قامت بها مصر .

لقد صدر الفرمان الأول من سعيد والى مصر إلى فرديناند دلسبس فى ٣٠ من نوفمبر سنة ١٨٥٤ ، فعند صدور الفرمان ومصر هى التى تنفق على الدراسات العلمية والبحوث الهندسية . وقد استغرقت تلك

الدراسات أكثر من عامين ، لم يكن فى الوسع أن تستمر وأن تؤتى أكلها مالم تجد من ينفق عليها ، وقد كانت خزانة مصر هى التى تنفق فى سخاء ؛ إذ بلغت النفقات نحو ٣ ملايين من الفرنكات الذهبية الفرنسية . ولقد كان المهندسون الذين يعملون فى حكومة مصر ، إلى جانب هذه المنحة المالية ، هم عماد تلك الدراسات إلى جانب قلة من مهندسى الشركة نفسها .

وقد يكون من الخير أن نقف هنا لندحض أيضا فرية أخرى من فريات ذلك التاريخ المسموم الذى صنعه الاستعمار ، أعنى بها : « أن فكرة وصل البحرين كانت أصلا فكرة غربية » ؛ إذ أن الواقع أن الدراسات التى أجراها المهندسون فى حكومة مصر : فى عهد محمد على كانت قد أثبتت أن ما وصلت إليه البعثة العلمية المرافقة لحملة نابليون من أن مستوى البحر الأحمر يعلو على سطح البحر الأبيض ، وأن فى فتح القناة بينهما ما يؤدى إلى إغراق الدلتا — لم يكن صحيحا فى رأى العلم وأن المقدمات الخاطئة التى بنت عليها تلك البعثة العلمية الفرنسية هى التى أدت إلى هذه النتائج غير الصحيحة .

نعود إلى تحويل القناة فنقول : إن مصالح الحكومة — وفى مقدمتها الترسانة — كانت تقوم بتجهيز الأعمال اللازمة للمشروع ، ولولا هذه المعونة الهندسية لتحملت الشركة فى إعداد ما يلزمها من

الأدوات ، وفى إصلاحها وصيانتها وصنع قطع التغيير اللازمة أثناء العمل ـ ما لا قبل لها به ، ولضاع عليها من الوقت والجهد ما كان خليقا بأن يؤدى إلى صرف النظر عن المشروع كله ، فإذا أضفنا إلى هـذا أن مصر قدمت الأراضى اللازمة للشركة بلا ثمن ، وكذلك كل الأراضى اللازمة للترعة الحلوة ، ثم إنها أعفت جميع ما تستورده الشركة من الآلات وأدوات ومواد البناء من الرسوم جميعا ،وفى مقدمتها الرسوم الجمركية لا فى فترة التنفيذ ، بل طوال حياتها عرفنا من الذى موّل هذا المشروع فعلا .

وحينما شرع فى تنفيذ مشروع قناة السويس كان عـدد سكان مصر أربعة ملايين من الأنفس ، لم يكونوا جميعا رجالا قادرين على العمل ، ولم يكن الرجال من هذا العدد كله من العمال ، فإذا أعطت مصر لهذا المشروع عشرين ألفا من العمال بلا أجر ، تـكون قد أعطت زهرة الأيدى العاملة ، والمفهوم أن مصر أعطت للشركة كل شهر ٢٠ ألفا أى ألقتهم فى جحيم الصحراء القاحلة الجدباء ؛ ليعملوا بلا وقاية ، ثم ليأووا إلى الفضاء ، فى آخر يومهم مكدودين ، وتردد فى صدورهم العجاف من فرط الجوع ، أنفاس خافتة لا يمسكها إلا الأجل المحدود وحـده ، والواقع أن مصر أعطت ٦٠ ألفا فى كل شهر

لا العشرين ألفا الذين أريد لهم أن يعملوا فى الصحراء من أجل ذلك المشروع ، والذين طلب إليهم أن يعملوا بلا انقطاع ، ذلك لأن العشرين ألفا الذين يعملون يجب أن يستمروا فى العمل حتى يحل محلهم عشرون ألفا آخرون يساقون من حقولهم ، فإذا وافت المجموعة الجديدة بدأت المجموعة القديمة فى الرحيل ، فكأن ستين ألفا من العمال المصريين قد شملتهم هذه السخرة الفادحة ، بعد أن انتزعتهم من حقولهم ، ومن العمل للاقتصاد القومى للبلاد .

—•—

الصعوبات التي واجهت هذا المشروع الضخم

عرفنا ـ فيما سبق ـ أن مصر هى التى مولت قنال السويس، وأنها حينما دفعت هذه التكاليف الباهظة ، كانت تؤدى رسالة إنسانية لا تبغى من ورائها كسبا ماديا على حين كانت الدول الكبرى فى قلق شديد ، تتآمر وترسم الخطط لتكسب من هذا المشروع كسبا سياسيا صرفا ، أو لتعوق تنفيذه . وقد بينت كيف أن بريطانيا عملت على إحباط هذا المشروع ، ثم قلت : إن الدول الكبرى التى تتحدث الآن عن قناة السويس بوصفها أداة عالمية للملاحة ، وطريقا دوليا ، تركت هذا المشروع يواجه الإفلاس ، فلم تمتد يد لإنقاذه . فهى لم تؤمن به لذاته أبدا .

لقد واجه المشروع الفشل فى السنوات الأولى له ؛ فقد عرضت الشركة أسهمها وكان عددها جميعا نحو تسعين ألف سهم فى أسواق بريطانيا وأمريكا ، ولم يتقدم أحد من الإنجليز أو الأمريكان لشراء تلك الأسهم ، فبارت الأسهم وحارت الشركة : كيف تجد المال اللازم

للسير بالمشروع إلى الأمام . ولو كانت مصر أمة ذات أطماع ، أو أدخلت فى تقديرها حساب الأرباح والخسائر — لتركت هذه الأسهم ، بل لتركت المشروع كله تحتويه أذرع الفشل والخيبة ، ولكن مصر على عادتها تقدمت فاشترت هذه الأسهم . اشترت هذه الأسهم التى رفض المؤمنون اليوم بالملاحة البحرية الدولية ، و بالتجارة ، و بالطريق العالمى — أن يشتروها ، وأن يواجهوا ما قد يجره شراؤها عليهم من خطر أو خسارة ...

ولماذا نذهب بعيدا ؟ ، لقد خرج دلسبس من مصر بعد أن تم فتح القناة ، خرج منها محوطا بهالة هذا الفوز العظيم ، فذهب يستغله لإنشاء مشروع آخر ، هو فتح قناة بناما لتصل المحيطين الهادى والأطلسى ، وتوفر على السفن السير جنوبا بمحاذاة شاطىء أمريكا الجنوبية الشرقى ، ثم السير شمالا بمحاذاة شاطئها الغربى أو العكس ، وكان ذلك المشروع يكلف فى التقدير الأول ٤٠٠ مليون فرنك فرنسى من الذهب ، فالتهمت الأبحاث الأولى رأس مال الشركة التى تأسست واضطرت إلى عقد قرض ، كان لا بد أن توافق عليه الحكومة الفرنسية ، وكان القرض بلا أساس لأن كل الدلائل قطعت بأن المشروع مخفق ، وأن التقديرات المالية التى قدرت له أقل بكثير مما يحتاج إليه . ومع ذلك فقد نجحت الرشوة التى تسربت إلى جيوب

الوزراء والنواب والشيوخ : نجحت فى استصدار المرسوم الخاص بإصدار هذا القرض ، وضاعت أموال الشعب الفرنسى فى هذا القرض لما كان ذلك متوقعا ، وهاجت الخواطر ، وانطلقت الصحف تكشف المستور ، وتشير بأصابعها جميعا إلى المتهمين والجناة ، وسقط عن دلسبس الغازى الفاتح ، الذى شق القناة ـ ثوب القداسة ، كما تدحرجت من فوق رأسه هالة المجد ، وظهر هو ومعاونوه على حقيقتهم ، وفتحت السجون له ، وللذين أعانوه فى هذه المقامرة ، فما الفارق بين المشروعين ؟ ما الذى جعل أول المشروعين يتم بغير التردى فى هذه الآثام، وجعل الثانى محفوفا بهذه الفضائح حتى نفضت اليد منه زمنا طويلا ؟ . الفارق أن مصر كانت خلف مشروع قناة السويس ، كانت ترعاه ، وتؤمن به إيمانها بالإنسانية نفسها ، قدمت له المعونة الفنية قبل أن يولد ، فدرسته وأحسنت درسه لا فى لهفة المقامر الذى يريد أن يكسب صفقة وسط التهويل والمبالغة ، بل فى أناة الراغب فى الخير ، والجاد المتعمق ، ثم مولته وأنفقت عليه وتحملت خسائره ، واشترت أسهمه وأنقذته من الدسائس الدولية ، نعم . . من الدسائس الدولية ، فقد كانت مصر فى ذلك الحين تابعة لتركيا ، وكانت استانبول مسرحا للدسائس الدولية ، وقد عملت انجلترا على هذا المسرح طويلا ؛ لتمنع سعيداً الوالى المصرى إذ ذاك من إنقاذ المشروع ، وكادت لسعيد هذا كيداً شديداً حتى أصابه من الهم والقلق

ما هزل معه جسمه هزالا شديدا ، وقد روى قنصل إحـدى الدول الأجنبية فى ذلك الحين أن سعيدا أمسك بسترته مبينا كيف أنها اتسعت عليه ، قائلا : كل هذا من بر يطانيا ! .

لقد اشترت مصر الأسهم التى رفض الإنجليز والأمر يكان أن يشتروها ، وكان المقصود أن ذلك آخر معونة تحتاج إليها شركة القناة لتقف على قدمها وتسير . وسار العمل بعـد أن كاد يقف ، حتى إذا ما قارب موعد افتتاح القناة ، ولم يبق على ذلك الموعد سوى ستة أشهر فقط توقفت الشركة فجأة ، وكأنما أصيبت الأعمال فيها بسكتة قلبية .

كاد هذا المشروع الضخم ، بعـد كل ما بذل من أجله من درس وفحص ، ومن عمل ومال ، أن يذهب أدراج الرياح . وظهر أن الشركة موشكة أن تفلس . أى حكومة بالغة ما بلغ سعة صدرها ، وأى خزانة كائنا ما كان نصيبها من الـكرم والسخاء كانت تسارع إلى النجدة والمعونة فى وقت هذه الشدة المفاجىء ؟ . والواقع الثابت فى كتب التاريخ الذى كتبه الفرنسيون مثـل ما كتبه غـيرهم أن المولين الفرنسيين لم يفعلوا شيئا فى هـذا المصاب المفاجىء ، وأن الحـكومة الفرنسية لم تتحرك فى جسمها شعرة ، وأن الأسواق البريطانيـة والأمر يكية وغيرها لم تطرف لها عين ، كأن هذا المشروع فى ذلك الحين لم يكن ليخص الشركة المصرية والحـكومة المصرية ، وكأن هذا الممر الذى

كان يشق لم يكن ممراً دوليا كما هو اليوم ، وكأن التوسع الاقتصادى الذى يغير وجه الأرض لم يكن هدفا من أهداف أوروبا عموماً و بريطانيا وفرنسا خصوصا . ولم تتردد مصر أبدا فى أن تواصل البذل والعطاء ، وأن تستأنف ما بدأته من تضحية وخسارة ، ونقدت الشركة ٣٠ مليونا من فرنكات الذهب . قد يكون هذا فرط إيمان من مصر بهذا العمل الضخم الذى يتصل بها ، والذى يؤدى أكبر الخدمات للعالم بأسره ، ولكن كان سفها لا شك من الولاة الذين دانت لهم أمور البلاد فى ذلك الحين ؛ فقد كان الواجب أن يدفعوا هذا المبلغ بعد كل الذى دفعوه لشركة يبدو أنها تعرف واجبها ، وأنها تحسن الإدارة والاستثمار والتقدير . كان يجب أن تنزع إدارة هذا المشروع ، والإشراف على تنفيذه منذ ذلك اليوم ، بل قبل ذلك اليوم بكثير ـ من الشركة التى كان يرأسها دلسبس ، إذ أن هذه الإدارة لقيت منذ فجر المشروع فشلا و إخفاقا مستمرين ، ولكن الولاة الذين أوسعوا صدر العذر لهذه الشركة هم الذين فتحوا من قبل نوافذ الخزانة المصرية ليثب إليها المرابون ، ثم فتحوا أبواب الدولة كلها ، ليتدفق منها النفوذ الأجنبى المستعمر المستغل ، ليهيىء للاحتلال طريقاً إلى قلب بلادنا ..

قبضت الشركة ثلاثين مليوناً من فرنكات الذهب نقداً وعداً بغير التزام عليها لمصر ، و بغير شرط فى عقد ، ولا نص فى اتفاق .

فهل تعرفون فى مقابل أى شىء كانت هـذه المعونة السخية من جانب مصر ؟ . فى مقابل تنازل إسمى عن بعض المبانى التى تملكها الشركة ، والتى بنتها فى أرضنا ، و بأيدى عمالنا ، والتى أعفيت كل المواد فيها من الضرائب والرسوم ، ومقابل تنازل الشركة عن بعض الإعفاءات من الرسوم الجمركية . فهل تعرفون كيف نفذ هذا التنازل ؟ . بقيت المبانى فى حوزة الشركة منذ تاريخ التنازل حتى يوم ٢٦ من يوليو الذى أعلن فيه مرسوم التأميم . أما التنازل عن الإعفاءات الجمركية فقد استردته الشركة فى سنة ١٩٠٢ .

وكانت الشركة قد استمرأت قبل ذلك ، و بعد ذلك ، أسلوب هذه التنازلات ؛ لأنها تدر عليها مالا كثيرا ، أكثر مما يتصوره عقول العقلاء ، وغايتها أن تمول مصر هذا المشروع ، وأن تزعم للناس فى الوقت نفسه أن المساهمين ، وحملة السندات ، ورأس المال الأوروبى هو الذى يحتمل الأعباء والتكاليف ، وأنه هو الذى يعطى العالم الشريان الحيوى للملاحة الدولية ، وأنه هو الذى يفتح الطريق بين الشرق والغرب .

فلقد تقاضت الشركة من الحكومة المصرية ٣٨ مليونا من الفرنكات الفرنسية الذهبية تعويضا عن إلغاء سخرة العمال المصريين و ٣٠ مليونا من الفرنكات الفرنسية الذهبية أيضا مقابل تعويض عن بعض المناطق الصحراوية التى لم تكن تلزم الشركة ، وهى بطبيعة

الحال من صميم الأراضى المصرية . هذا كله إلى جانب ١٦ مليونا من تلك الفرنكات حكم بها نابليون الثالث على الحكومة المصرية لصالح الشركة فى تحكيم ارتضاه الخديوى إسماعيل . . . ملايين فوق ملايين ، فوق ملايين من جيب المصريين ، هى التى شقت القناة ، وهى التى أقامتها . حسبك أن تعلم أن مادفعته مصر للشركة فى الفترة القصيرة السابقة على افتتاح القناة قد قارب ٤ ملايين من الجنيهات ، بينما كان رأس مالها كله ثمانية ملايين . فإذا قلنا : إن أرض مصر وخبرة مصر الهندسية ، ومصانع مصر ، وعمال مصر ، وخزانة مصر ، هى التى صنعت هذه القناة ؛ لتربط نقطتين من مياهنا الإقليمية : الواحدة بالأخرى لم نكن نتجنى أو نبالغ . .

هذه هى الحقيقة المجردة البسيطة جدا ، مصر هى التى خدمت الملاحة الدولية ، مصر هى التى ربطت الشرق بالغرب ، مصر هى التى تؤمن بأن التجارة الدولية يعود خيرها على العالم بأسره . فإن سمعنا فى عواصم العالم تباكيا على الممر البحرى الدولى . لو سمعنا إشفاقا على التجارة العالمية ، وخوفا عليها من مصر ، فلنقل للجميع : هاتوا تاريخكم وهاتوا تاريخنا . هاتوا ما فعلتموه من أجل الملاحة الدولية ، والتجارة العالمية ، وانظروا ماذا فعلنا . وعندها سيعلم الجميع أن مصر حينما تشرف على تلك

الملاحة ، وحينما ترعاها ، ستفعل ذلك بنفس هذه الروح الإنسانية السمحة الكريمة التى خلقت القناة ، وأنقذتها مما يهددها على مدار سنى حياتها من مخاطر هائلة ، وأنها ستزدهر ، وأن العالم سيجنى من ورائها رخاء وسعادة .. وأن ذلك كله سيكون بشير عهد ملؤه الأمن والطمأنينة للناس أجمعين .

مؤتمر فاشل لاستعمار آفل

انتهى أمس اجتماع لندن بعد ثمانى جلسات ، و بذلك انتهت صفحة جديدة من صفحات حياة قناة السويس ، التى تفيض منذ البداية بالمؤامرات والدسائس ، والشهوات والأغراض . هـذه الحياة التى كان أول سطورها الفرمان الصادر فى الثلاثين من نوفمبر سنة ١٨٥٤ ، والذى يبدأ بهذه العبارة « بمـا أن صديقنا فردناند دى لسبس قد لفت نظرنا إلى الفوائد التى تعود على مصر من وصل البحر الأبيض المتوسط بالبحر الأحمر بطريق يصلح لملاحة السفن الـكبيرة» . ولا أشك فى أن أى مصرى ، بل أى منصف لا يستطيع أن يقرأ هذه العبارة دون أن ترتسم على شفتيه ابتسامة سخرية ؛ ففوائد مصر التى تحدث عنها الفرمان لم تعد أبدا عليها منذ صدر هذا الفرمان ؛ فإن هذا الفرمان وما تلاه لم يجرّ على مصر سوى الـكوارث والمصائب ، عدا الخسائر والمتاعب ، وقد كان آخر ماجنته مصر ، هو اجتماع هذا المؤتمر الغريب الشاذ فى لندن ؛ ليناقش عودة إدارة القناة إلى مصر .

لقد شهد التاريخ الـكثير من المهازل التى سميت المؤتمرات ،

أو المعاهدات ، ولكن تاريخ العلاقات الدولية لم يشهد مهزلة أكبر من هذه المهزلة التى مثلت على مسرح لندن فى المدة الواقعة بين السادس من أغسطس سنة ١٩٥٦ ، والثالث والعشرين من هذا الشهر نفسه ، ولسنا نحن الذين نصف هذا المؤتمر بهذا الوصف ؛ فإن المشتركين فيه والداعين إليه هم الذين أسبغوا عليه هذا النعت ، إن لم يكن بألسنتهم فبفعالهم وتصرفاتهم .

لقد اجتمع هذا المؤتمر وانفض دون أن يعرف الداعون إليه أو المشاركون فيه لماذا جاءوا ، ولا لماذا انفضوا . فمنذ اللحظة الأولى أعلن دالاس أن هذا الاجتماع لا يملك أن يصدر قرارات ملزمة لأعضائه . وقد انتهى المؤتمرون بعد طول الكلام إلى أن المؤتمر لا يمكن أن يصدر قرارات مطلقا .. وقد كان . فقد طار دالاس إلى بلاده ، وتفرق الجمع الضخم كل إلى حال سبيله ، دون أن يبرموا شيئا .

وقد كان من الطبيعى أن يناقش المؤتمرون فى أولى جلساتهم إجراءات المؤتمر ؛ لأن الإجراءات هى الأساس الذى تجرى عليه الأعمال ، ولأنها السبيل إلى تحديد أهداف المؤتمر ، وطريقة العمل فيه ، وحقوق الأعضاء والتزاماتهم . ولكن الداعين إلى المؤتمر كانوا يعلمون منذ البداية أنهم لو ناقشوا هذه الإجراءات فى أولى جلساتهم لما استطاعوا أن يتموا المظاهرة التى نظموا المؤتمر من أجلها ، ولانقضى الأسبوع الذى

حددوه لهذه المظاهرة دون أن يشرعوا فيها ، لذلك أبقوا موضوع الإجراءات إلى آخر الأمر مؤملين أن تجود عليهم الظروف بما يخرجهم من هـذه الورطة التى وضعوا أنفسهم فيها دون روية أو تدبر . والحق أنهم ما كانوا يستطيعون أن يتدبروا أو أن يلزموا أسلوبهم التقليدى فى ضبط النفس وفى الاتئاد ؛ فقد طار صواب الاستعمار كل مطار حينما أحس أن مصر والبلاد العربية ، ومن خلفها جميعا أكثر دول مؤتمر باندونج قد اعتزموا أن يكونوا أحرارا بحق ، وأن يبرموا أمورهم دون أن يتلفتوا يمينا أو يسارا ، ودون أن يبحثوا عن مصدر للإلهام ، غير ذوات نفوسهم ، وما تقضى بهم مصلحتهم ومصلحة الإنسانية .

وهكذا شاء ربك أن يعكس الأمور ، وأن يقلبها على الذين أتمروا بنا ، وأرادوا ألا نـكون لهم ندا : نقول لهم : لا ، ونقول : نعم ، حينما نريد أن نقول الأولى ، أو الثانية . لا نبغى فى الحالين أن نعاند أو نـكابر ، ولا أن نجامل أو نساير ، و إنما نبغى وجه الله العظيم .

لقد أراد الاستعمار أن يجعل من هذا المؤتمر مظاهرة ، يعرض فيها قوته وتـكتله ، والبقية الباقية من سلطانه القديم ، مؤملا أن تتزايل مفاصلنا ، وأن يغلبنا على أمرنا خوف عظيم ، فـكان المؤتمر فرصة تعلو فيها صيحة الشعوب ، ومنبرا تتردد من فوقه أصوات العهد الجديد : العهد الذى تحترم فيـه الشعوب وجودها ، وتحرص على الدفاع عن

حقوقها . لقد سمع العالم كله ماقاله ممثل الهنـد وممثل أندونيسيا وممثل الاتحاد السوفييتى ، وقد كان مثل ذلك القول تخافتا لايتعدى الهمس ، فأصبح دعوة مجلجلة تلقفتها آذان الملايين فى آسيا وفى أفريقيـا وفى أوروبا ، وهذا كسب لو تعلمون عظيم ؛ فإن الصيحة الصادقة لا تكون أبدا صيحة فى واد ، و إنما هى دائما نفير يستثير الهمم و يستجيش العزائم ، و يجمع الناس حول لواء واحد . وهيهات للقوة الباطشة بعد أن يجتمع الناس ـ أن تفعل فيهم شيئا ، بل إنها تزيدهم إصرارا وتزيدهم ثباتا .

والـكسب الثانى أن المؤتمرين جميعا لم يجرءوا على التشكيك فى حق مصر فى تأميم القناة . لقـد سلموا عن بكرة أبيهم أن ذلك حق لامرية فيه ولاجدال حوله ، و بذلك وضعوا أنفسهم فى أحرج المواقف؛ إذ لا بد أن يسائلهم كل عاقل فى هذا العالم الـكبير : كيف يكون حقا مشروعا لمصر ، وتـكون نتائج هذا العمل المشروع عدوانا يستأهل هذا الضجيج الضخم ؟ ! كيف يكون التأميم من صميم سلطة مصر وسيادتها على أراضيها بمـا فيها منطقة القنال ، ويكون رد الفعل على هذا العمل الداخلى السليم الصحيح دعوة الاحتياطى فى لندن، وتحرك أساطيل انجلترا وفرنسا ، وتداولهما فى الموقف من نواحيه الحربية والعسكرية ؟ ! ! كأن مصر سيرت ضدهما جيشا ، أو هددت وجودهما بعدوان ! ! ! .

وقد أحدث هـذا التراجع أثره فى موقف المؤتمرين ؛ فقد خفتت

لهجة التلويح بالحرب ، وخجل دعاة العدوان من مواصلة حملتهم السافرة المجترئة . قد يكون هذا الخجل إلى حين ، وقد يكون التخافت فى الدعوة إلى الحرب أسلوبا للمناورة والمداورة ، ولكنه على كل حال كسب تستطيع الشعوب أن تسجله لنفسها ؛ فقد استطاعت هذه الشعوب العزلاء أو الشبيهة بالعزلاء من السلاح أن تواجه حراب المعتدين بصدور مكشوفة عارية ، وأن تقول لهم فى صيحة مجلجلة مدوية : نكسوا سيوفكم وأغمدوا حرابكم ، فإنكم أنتم الخاسرون إن حاربتم . اعلموا أن الشعوب تريد السلام والأمن . تريد البناء والتعمير . تريد الإنشاء والرخاء . تريد مصانع لتطعم الملايين التى ضربها الاستعمار بنقمة الجوع والعرى . تريد مدارس ليتعلم أبناؤها . . . تريد وسائل جديدة تجعل الحياة أحلى مذاقا ، أو أقل مرارة .

وهذا هو الكسب الثالث الذى كسبناه فى هذا الذى انعقد فى لندن ، والذى لا نعرف هل نسميه مؤتمرا أو اجتماعا ، أو شيئا ثالثا لا يعرفه التاريخ ، ولا يعرفه القانون الدولى .

جرى عرف الدول الكبيرة أن تختار لنفسها عاصمة من عواصمها ، وتدعو لها ماتشاء أو من تشاء فى زمن تعينه هى ، ثم تناقش مشكلة أى شعب صغير ، أو مسألة أية دولة ناشئة ، ثم يتداولون أو يتظاهرون بأنهم يتداولون ، ثم يصدرون قرارا من القرارات ، فإذا الشعب الصغير

محمول حملا على تنفيذه دون أن يملك حق المناقشة أو الاعتراض فهكذا شاءت إرادة الإله ، وإرادة الإله لا ترد ، والأمثلة فى التاريخ على ذلك كثيرة ، فقبيل الاحتلال البريطانى لمصر دعت الدول الكبرى إلى مؤتمر فى ضاحية باستامبول عاصمة تركيا تدعى (ترابيا) .

وفى هذا المؤتمر ناقشت انجلترا وفرنسا وإيطاليا والنمسا وغيرهم الشئون الداخلية فى مصر الناشبة عن قيام الثورة العرابية . ولم تدع مصر ، ورفضت تركيا أن تلبى الدعوة إليه ، فلم تحفل بريطانيا وفرنسا بامتناع تركيا عن الحضور ! ولا بأن مصر صاحبة الأمر لم تشهد شيئا من هذا المؤتمر ! ! ، واستمرت مداولات المؤتمر .

وفى سنة ١٨٤٠ عقدت بريطانيا مؤتمرا فى لندن لتقرير مصير مصر ومستقبل علاقاتها بالدول العربية ، ولم تكن مصر ممثلة فى هذا المؤتمر ، ومع ذلك أصدر المؤتمر قرارا استمر أساسا لمركز مصر الدولى حتى كانت الحرب العالمية الأولى فى أغسطس سنة ١٩١٤ .

وفى سنة ١٩٥٦ ، كان عالم الاستعمار يعيش فى نفس هذا الماضى : كان يظن أنه يستطيع أن يدعو مصر صاحبة القناة إلى مؤتمر فى لندن ؛ ليناقش مستقبل القناة وإدارتها ، وضمانات حرية الملاحة فيها . ولما رفضت مصر الدعوة أحس المؤتمرون لأول مرة فى تاريخهم ـ أن مؤتمرهم فقد صفته ، وانتفت المصلحة من عقده . وغمرتهم حيرة لا أول لها

ولا آخر . أصبحو حيارى ، لا يدرون أينفضون ، فيضحك الناس عليهم ، أم يستمرون ، فيكون نصيبهم من السخرية أكبر ...

ولما واجهو خاتمة المؤتمر قرروا أنهم لا يستطيعون أن يقرروا . . وقد كان المخرج لكل هذا أن يحضروا هم إلى مصر ، وأن يعرضوا فى القاهرة وعلى رئيس الجمهورية المصرية ، صورة كاملة لما قالوه ، وتداولوا فيه ، ليأذنوا بالنظر فيه . . . ولكن أهذا مخرج ؟ !!! أم أن ورطة الغرب لا تزال باقية ، وأن الله لم يشأ بعد أن يرضى عنهم ، ويخفف نقمته عليهم ؟ .

لقد كان ختام هذا المؤتمر تصريح المستر همر شولد السكرتير العام لهيئة الأمم المتحدة فلقد صرح بأن تهديد انجلترا وفرنسا بالحرب ، وأن تحريك أسطولها ، وتجميع جيوشها ـ تحد سافر لميثاق الأمم المتحدة ، وقد ختم تصريحه بهذا التساؤل .. لماذا نحن هنا ؟ ... لماذا نبقى فى هيئة الأمم المتحدة ؟

ونحن نسأل معه ، لماذا هم هناك ؟ ، ولماذا يبقون فى هيئة الأمم المتحدة ؟

صدى هذا الحدث العظيم

حينما وجهت الدعوة إلى مؤتمر لندن ، ورفضت مصر حضوره ، قالت الدوائر الاستعمارية : إن الاتحاد السوفيتي سيتبنىّ قضية مصر ، وإنه سينتهز هذه الفرصة ؛ ليتخذ من المؤتمر منبراً يهاجم منه الغرب ، ويبدى بلاده فى صورة الملاك الحارس للقومية العربيـة . وانعقد المؤتمر فتكلم شبيلوف وزير خارجية الاتحاد السوفيتى أكثر من مرة كلاما لم تـكن دول الغرب تحب أن يقال أو يسمع . ولـكن شبيلوف لم ينفرد بمهاجمة مشروعات الغرب الاستعمارية الرامية إلى انتزاع القناة من مصر ، وإخضاعها لدول أخرى لا يهمها سوى أمر واحـد : هو ألا ترتفع فى الدنيا رأس سوى رأسها ، وألا تسود بين الناس كلمة غير كلمتها ، بل وقفت الهند ووقفت سيلان ووقفت أندونسيا ضد هـذه المشروعات ، وحذرت الغرب من مغبة العدوان الذى تضمره ، والعنف الذى تستند إليه .

وانتهى مؤتمر لندن ، وأحس الغرب أنه لم ينجح بعـد فى تعبئة

الرأى العام المحلى والعالمى لتأييد الحرب والاستعداد لها ، وأخـذ يرتب مجموعة من الأعمال والمظاهرات السياسية والدولية ؛ لإرهاب مصر من جهة ، ولإظهار نفسه فى صورة الباحث عن حل من جهة أخرى ، مؤملا أن يخدع الرأى العام فى انجلترا وفرنسا وأمريكا ، وكذلك الرأى العام العالمى من ورائه ، ولـكنه لم يحقق فى ذلك الصدد أى نجاح ، وتفتقت حيلة الغرب المضطرب عن هـذه الشركة أو الهيئة الجديدة لتنتزع القناة من مصر بطريق مباشر .

واضطرت حكومة إيدن صاحبة هذا الاختراع الدولى غير المسبوق تحت ضغط الصحافة والمعارضة ، وضغط صيحات الاستنكار والتنديد بها التى ارتفعت من كل ركن من أركان العالم ـ أن تبسط سياستها أمام البرلمان البريطانى بمجلسيه : العموم واللوردات .

وفى مجلس العموم البريطانى ، لا يحضر بداهة وزير خارجية الاتحاد السوفيتى ، ولا يتـكلم ممثل الهند . وإنما يقتصر الـكلام على الإنجليز الأقحاح الذين لا يفـكرون إلا فى مصلحة بلادهم ، ولا يتأثرون بتوجيهات الروس ، أو الشيوعية . فماذا لقى هناك مستر إيدن ؟ ، وماذا سمع زميله ومساعده ، مستر لويد ؟ ، ماذا قيل فى هذا المجلس الرصين الوقور الذى عشنا عمرنا نسمع أنه مدرسة السياسة الـكبرى ، وأن

مناقشاته من الطراز العالى الذى إن احتذاه المبتدئون فى الحياة السياسية، وصلوا إلى أقصى المراتب ، وحققوا من النجاح أكبر نصيب .

إن أقلام الصحافة العربية ، وإن خصوم الغرب الألداء ، لم يقولوا فى شىء مما كتبوه أو أذاعوه حرفا واحدا مما حصبت به المعارضة إيدن ولويد . فنى اليوم الأول من أيام المناقشة تهكم النواب على إيدن ، حينما زعم أنه يبحث عن حل سلمى ، وصاحوا فى وجهه : « أى صانع للسلام أنت ؟! » واشتركت الأقدام مع الأيدى فى مقاطعته ، وفى التعبير عن استنكار سياسته .

والحق إن الإنسان ليضحك وهو لا يدرى أيضحك سرورا وابتهاجا أم يضحك إشفاقا وأسى ، وهو يسمع إيدن يذكر السلام ولو مجرد ذكر ؛ فإن الرجل لم يتردد فى إعلان أنه مصمم على التدابير الحربية التى أمر باتخاذها ، وأنه يراها اليوم أوجب مما كانت عليه منذ شهر ، ثم لا يرى بعد ذلك تناقضا بين هذا الإعلان و بين الحديث عن السلام ، ومع ذلك يجب أن نضحك على هذا التناقض فرحا وسرورا ؛ فإن التمسح فى السلام ، والظهور على مسرح السياسة فى ثوبه ـ دليل على أن السلام قوى ، وأنه يتقدم ويكسب كل يوم معارك ، ويدفع أمامه حتى ألد خصومه ، فيزعمون أنهم ينتسبون إليه ، ويستوحونه ما يقولون وما يفعلون .

إن الصيحات التى علت فى مجلس العموم البريطانى ، فى وجه سياسة العدوان والاستفزاز ـ دليل على أن العدالة الدولية أقوى مما يتصور دعاة الحرب المؤمنون بالسلاح . وأيا كان دافع النواب الانجليز الذين يقفون فى وجه إيدن ، ومهما كانت حقيقة تقديرهم لحق مصر فى السيادة على أرضها وإقليمها ، وما يقوم فيه من منشآت ومرافق ـ فإن هؤلاء النواب أحسوا بالمخاطر الحقيقية التى تتعرض لها بلادهم إذا هى أقدمت على الحرب ، ورأوا فى إنشاء هيئة جديدة تضم بريطانيا وأمريكا وفرنسا ، وتدعى لها دول أخرى لإدارة القناة ـ بداية تلك الحرب ؛ لأن إنشاء تلك الهيئة ليس إلا تحرشا حربيا صريحا مباشرا بمصر ، واستفزازا صارخا لها .

لذلك لم يملك شنويل وزير حربية بريطانيا السابق ، وهو رجل يعرف مغبة الحرب ويدرك ما تجره على بلاده وعلى العالم من ويلات ، لم يملك نفسه من الصياح فى وجه إيدن وسياسة إيدن ، بأن الحكومة البريطانية إن فكرت فى الحرب ، فلا يمكن إلا أن تكون حكومة مجانين . أما الفرد روبنز ، فقد قال فى غير مواربة : إن مشروع إنشاء هذه الهيئة الجديدة ليس مجرد استفزاز ، بل إنه غباوة أيضا ، ونبه روبنز حكومة بريطانيا إلى أنه يمكن ـ بفضل الأساليب الحديثة

وأعمال الفدائيين ـ تعطيل الملاحة نهائيا فى القناة إذا صممت انجلترا وفرنسا وأمريكا على التمسك بمشروع الهيئة الجديدة .

ولسنا نذكر هذه الفقرات من خطب رجال المعارضة البريطانية إلا لنستعرض معا القوى المختلفة التى تتجمع فى وجه معسكر القوة والعدوان : هذه القوى التى بعثتها سياسة مصر وأسلوبها فى معالجة المشكلات الدولية . وقد كان خليقا بهذه القوى أن تبقى كامنة ، أو أن تتبعثر فتفقد الشعوب الطامحة إلى الحرية ، والراغبة فى الاستقلال ـ ثقتها فى النضال الذى تقوم به .

على أننا كسبنا ـ بالتأمل فيما قيل فى مجلس العموم ـ فائدة أخرى : كسبنا أننا نزعنا النقاب عن وجه صورة من صور التضليل ، كان الغرب يحرص أشد الحرص على سترها و إخفاء حقيقتها . كان الغرب يعلن إيمانه بالأمم المتحدة فى حرارة ، وكان يدعو المحكومين والمغلوبين على أمرهم أن يؤمنوا بها ، وأن يصدقوا أنها العلاج الشافى لكل مشكلاتهم ومتاعبهم . كانوا يقولون ذلك ويذيعونه ويؤكدونه ، حينما كانت الأمم المتحدة أداة طيعة من أدواتهم ، فلما تطورت الأمور ، وجدت على مسرح السياسة الدولية عناصر لم تكن موجودة من قبل ، وأصبحت الأمم المتحدة أداة غير مضمونة لتحقيق المآرب الاستعمارية فى كل

حين ـ أعلن الاستعمار الإنجليزى الفرنسى أنه سيذهب إلى الأمم المتحدة لا لأنه يؤمن بها ، بل لأن المعارضة الحزبية تريد ذلك ، ولأن الرأى العام يطلبه ، ولكن الاستعمار يأبى أن يعلن أنه سيلتزم العمل فى حدود ما تقضى به الأمم المتحدة . وقد ذكَّر إيدن زملاؤه بما كان يعلنه من إيمان عظيم بهذه المنظمة الدولية ، بل بما كان يبديه من إيمان بزميلتها السابقة عصبة الأمم ، وقالوا له : « ألأنك تخشى أن يصدر حكم عليك من الأمم المتحدة تأبى الذهاب إليها ، وترفض احترام مقرراتها ؟ ! »

إذن هى القوة . هى القوة وحدها تريد أن تملى شروطها ، وتأبى أن تعترف بهذا العالم الجديد الحر الذى تكوّن من مجموعة الدول الناشئة ، والشعوب المكافحة . إنها القوة التى لا تطيق أن يستعمل المحكومون فى الماضى القريب ـ حقهم فى الحرية التى ظفروا بها ، والتى دفعوا ثمنها من دمائهم وأرواحهم وأرزاقهم وسعادتهم .

ولكن هذه القوة ـ على بطشها وعلى اعتدادها بما تملك ـ لا تزال تحس بأن الدعوة إلى السلام تضيق عليها الخناق ، وأنها وإن كانت تظهر العزم على استعمال السلاح ، وخوض الحرب ، إلا أنها مع ذلك ـ بينها وبين نفسها ـ تحس بفداحة المخاطر التى تواجهها ، وباحتمال

الخسارة والهزيمة . ومن أمثلة ما يساور الغرب ما جاء فى رسالة مراسل النيويورك تيميز فى لندن إلى جريدته قال : « إن المصادر الحربية فى لندن تعترف بأن موقف قناة السويس إذا تفاقم لدرجة تتطلب تدخل بريطانيا عسكريا فإن ذلك يتطلب عدة أسابيع بل شهور قبل أن تتوفر لبريطانيا القوة الكافية لمواجهة الجيش المصرى » ، ومضى هذا المراسل يقول : « إن الجيش الأردنى وحده يملك من القوة ما يمكنه من التغلب على جنود المظلات الإنجليز ، فى حين أن لدى مصر أكثر من ثلاث فرق مشاة كاملة العدة حسنة التدريب ، وفرقة على الأقل من المصفحات ، فضلا عن سلاحها الجوى الذى أصبح قوة عظيمة ، لا يسوغ الاستهانة بها وفضلا عن أن لدى مصر ما يزيد عن ٢٢٠ ألف جندىٍّ احتياطى مدرب » .

هذه تقديرات الكاتب واستنتاجاته ، ولكن الاستعمار خليق بأن يدخل فى حسابه أن القوة العسكرية المصرية ليست إلا الصورة الظاهرة لقوة المقاومة التى ينطوى عليها الشعب كله ، لا الشعب المصرى وحده ، بل الشعوب العربية جمعاء : الشعوب العربية التى ترى فى مشروعات الغرب وإصراره على أساليبه القديمة ـ امتهانا لها واعتداء عليها ، ورغبة فى ردها عن مكانها الطبيعى الذى تؤهلها له كل

مزاياها التاريخيــة والجغرافية والاقتصادية والروحية ، وحبها فى الحرية والحياة . . وقد قالت فرانس أوبرز فاتير فى هذا : « إن تلويح الغرب بقبضته أتى بعكس النتيجة ؛ فقد دعم مركز عبد الناصر ، وزاد تأييد العرب والدول الأسيوية له ، وزاد اهتزاز الرأى العام العالمى » .

نجاحنا وهزيمة الاستعمار

تبينا معا أن مؤتمر لندن قرر شيئا واحدا ، هو ألا يقرر شيئا . وتبينا أن ذلك كان تطورا عميقا فى الحياة الدولية ، وفى مركز مصر بين الأمم . فقد درجت بريطانيا ، ودرجت الدول الكبرى فى الماضى ، على أن تسجل مشكلات الدول الصغرى فى مؤتمرات تعقدها ، أى تنفرد بتوجيه الدعوة إليها ، و بوضع جدول أعمالها ، ثم تصدر فيها قرارات لا يكون للدول الصغرى إلا أن تنصاع لها ، فتنفذها وهى لاتؤمن بها ، بل وهى تؤمن بأنها باطلة . وفى مؤتمر كهذا بلندن تقرر مصير مصر فى سنة ١٨٤٠ فى عهد محمد على ، وفى مؤتمر كهذا أيضا تقرر مصير الثورة العرابية فى يونيه سنة ١٨٨٢ فى مؤتمر بترابيا : الضاحية القريبة من استانبول . . وقد كان الإنجليز و إخوانهم الفرنسيون يظنون أنهم قادرون على أن يمثلوا الدور نفسه فى لندن أيضا ، على الرغم من أننا الآن فى سنة ١٩٥٦ ، وعلى الرغم من أن العرب أصبحوا حقيقة كبيرة فى حياة العالم ، وعلى الرغم من أن الاستعمار قد جلا عن أكثر من موضع هام فى العالم ، وهزم فى أكثر من موقعة .. ظن الاستعمار أنه يستطيع أن يدعو مصر إلى لندن ؛

ليناقش مشكلة قناة السويس التي تجرى فى أرض مصر ، والتى دفعت مصر فى حفرها الغالى والنفيس من دم وعرق أبنائها ثم من مالها . ونسى هذا الاستعمار أنه اضطر أن يجلو عن قارة الهند ، وقد كانت ألمع جوهرة فى تاج الامبراطورية ، وأنه جلا عن السودان ، وقد كان يفتل لاستقلال هذا القطر الفتى حبال المشنقة فى اكتوبر أو نوفمبر من سنة ١٩٥٢ . ونسى أنه بعد طول المماطلة والتسويف جلا عن منطقة السويس العزيزة عليه ، الغالية عند كل زعيم من زعماء الاستعمار . نسى أن واقعة « ديان بيان فو » وقعت ،وأن شعبا صغيرا كشعب الأردن قد استطاع أن ينتفض انتفاضة قوة أطارت آخر وأكبر رمز من رموز الاستعمار البريطانى فى الشرق العربى . نسى الاستعمار كل هذا ، ولكنه فى مؤتمر لندن اضطر أن يتذكر ، واضطر أن يعلن على لسان مستر دلاس أن هذه الجماعة من الدول لا تملك أن توجه إنذارا إلى مصر ، ثم أن يعلن أنه لا يستطيع أن يصدر قرارا إطلاقا ، وأخيرا أنه لا يستطيع حتى أن يصدر بيانا عما تم من أعماله .

لقد جاء هذا النجاح الضخم على مراحل ، مما زاد الشعور به ؛ لأن كل مرحلة من هذه المراحل كانت تكشف عن تطور واقع فى داخل المؤتمر ، وفى مدى إحساسه بقوة أعضائه ونفوذهم بالقياس إلى قوة مصر ،

ومركزها فى العالم ، ومدى تأييد الشعور العالمى لها ، ومدى تأثير الشعوب المكافحة لهـا .

ولقـد انتهت الدول التى أيدت مشروع مستر دالاس إلى تأليف لجنة مهمتها ـ كما حددها وأعلنها رئيس هـذه اللجنة ـ عرض وشرح مارأته ثمانى عشرة دولة فى موضوع قناة السويس على رئيس جمهورية مصر .

وأحب أن نتأمل معا هذه الخطوة ، وأن نحللها فى هدوء :

أول مايلاحظ على خطاب رئيس اللجنة أنه صيغ فى عبارة مؤدبة مهذبة ، تختلف أشد الاختلاف عن هذا الأسلوب النارى الساخط الثائر الذى استعمله رئيس وزراء بريطانيا ووزير خارجيتها قبـل المؤتمر وفى المؤتمر ، بل عن الأسلوب الذى استعمله نفس رئيس هذه اللجنة . حقيقة أن الخطابات الدبلوماسية تصاغ دائما فى أرق عبارة ، ولـكن هـذا التقليد لم يعمل به فى أزمة القناة ، فقد خرج رؤساء الحـكومات ، وخرج وزراء الخارجية فى الغرب عن كل عرف فى هذا الصدد ؛ وأصبح التنافس فى انتقاء العبارات الجارحة ، هو ديدنهم جميعا . وقد قابلت مصر ذلك كله فى هدوء ورباطة جأش دل على رفعة فى الأسـلوب ، وقوة فى الخلق ، وإيمان بسلامة القضية التى تدافع عنها . ولا يمكن أن يفوت القارىء لخطاب رئيس اللجنة المستر منزيس أنه لم يشر إطلاقا إلى مؤتمر لندن ،

ولم يشر كذلك إلى اقتراح مستر دالاس وزير خارجية الولايات المتحدة، إنما هو يشير فحسب إلى رأى ثمانى عشرة دولة ذكر أسماءها فى موضوع قناة السويس . على أن الذى يستحق التنويه به ، و إبرازه — أن مهمة هذه اللجنة لاتتجاوز الشرح والعرض فليست هى لجنة مفاوضة . وقد أشارت الجرائد الأوروبية المختلفة إلى ذلك . فمثلا جاء فى مقال لجريدة الكومبا الفرنسية : « إن هذا الوفد لايحمل إنذارا إلى القاهرة ، كما أنه ليس من مهمته أن يدخل فى مفاوضات ، فإن عليه أن يحيط الحكومة المصرية بقرارات مؤتمر لندن » وقول الجريدة ليس دقيقا ؛ إذ استعملت عبارة « قرارات » ؛ إذ أن مؤتمر لندن لم يقرر شيئا ، بل إن المؤتمر حرص على تسجيل أنه لم يصدر قرارات .

وقد كانت اللجنة تفضل أن يتم لقاؤها بالسيد الرئيس أو بممثله خارج القاهرة فى بلد كروما أو كجنيف ، ولكن كان هذا أبعد الأمور عن التصور ؛ ذلك لأن المشكلة تخص مصر أصلا ، فلا يجوز عقلا أن تناقش خارج مصر ، ولأن اللجنة هى التى تريد أن توجه إلينا الحديث ، فالطبيعى أن تقصدنا ، وتأتى إلينا ، وعندها لا يجد أعضاؤها من مصر — كما قال بحق السيد كرشنا منون وزير الدولة الهندى — إلا كل حفاوة وترحيب ؛ فمصر كما قال الوزير : أمة مضيافة ، و إن أسلوبها طوال حياتها فى كل الظروف أسلوب مفعم بالكرم والتسامح.

وما دام رئيس هذه اللجنة قد أعلن أنه جاء ومعه أعضاء اللجنة ، ليعرض على رئيس جمهورية مصر ويشرح وجهة نظر الدول التى ندبت اللجنة . فرئيس الجمهورية لا يملك إلا أن يسمع ، فليس فى سماع هذه الوجهة ما يضر ، بل إن مصر اقترحت يوم أن رفضت حضور مؤتمر لندن ـ أن يعقد مؤتمر يضم خمسا وأربعين دولة ، لا أربعا وعشرين ؛ ليناقش أعضاؤه بعضهم بعضا ، وليستمع أعضاؤه ، كل إلى وجهة نظر الآخر من أجل إبرام وفاق يضمهم جميعا ، و يوثق فى هيئة الأمم المتحدة ، يحل محل وفاق سنة ١٨٨٨ الذى وضعته الدول ليحمى قناة السويس من عدوان بريطانيا ومن آثار احتلالها لمصر عموما ولمنطقة قناة السويس خصوصا .

إذن جاء قرار رئيس الجمهورية المصرية القاضى باستقبال هذه اللجنة طبيعيا ومتفقا مع تقاليد مصر ، وحكيما . كان طبيعيا لأنه متفق مع تقاليد مصر ؛ إذ لم يكن معقولا أبدا أن ترفض مصر استقبال خمسة من أية دولة ومن أى مستوى ، ما داموا قد أعلنوا رغبتهم فى المجىء إليها ، فى أسلوب لا يمس سيادتنا ، ولا يجرح شعورنا . وقد كان حكيما كذلك .

وقد تكون حكمة هذا القرار أوضح من أن تحتاج إلى شرح ،

ولـكن لا بد أن نلفت النظر إلى حقيقة من حقائق الموقف الدولى لا يجب أن تغيب عنا . فإن الدول الـكبرى أحست أنها حينما لوحت بالقوة ، وحينما كشرت عن أنيابها لتخيف مصر ، ولتحملها قسرا على الانصياع لما رأته تلك الدول ، أحست هذه الدول الـكبرى أن الرأى العام العالمى ، بل الرأى العام المحلى ـ لم يستجب لها ، بل أحست أن هذا الرأى العام العالمى أصبح يشير إليها بأصبع الاتهام ، معلنا أن تلك الدول تريد أن تزج بالعالم إلى أتون الحرب ، من غير جريرة ارتكبها هذا العالم ، ومن غير خطر يهدد سلامة الناس أو أمنهم . لم ير ضمير الإنسانية البرىء من المصالح والشهوات فى عمل مصر عدوانا على أحد، ولا خرقا لاتفاق دولة ، ولا مساسا بمصلحة عامة . بل رأى فى عمل مصر مباشرة لحق من حقوقها، لا يستحق هذ الضجيج الذى نظم حوله . بل قد حدث شىء أهم وأكبر ؛ ذلك أن مؤتمر لندن نفسه رأى ذلك . فقد أقر أعضاء المؤتمر التأميم ، ولم يقف أمامه ولم يناقشه .

لذلك اضطرت هذه الدول أن تغير أسلوبها فى المعركة ، وآثرت أن تلبس ثوب اللطف والوداعة ، بعد أن عجزت عن الانتفاع بمظهر القوة والتهديد . ومن هنا جاء حرصها الشديد على أن تعلن رغبتها فى أن ترى رئيس الجمهورية المصرية ، وفى أن تراه فى أقرب وقت ، وأن

تعرض عليه وتشرح له ما رأته ثمانى عشرة دولة . وغايتها أن تسجل أنها لجأت إلى المهادنة والملاينة وسعت إليهما ، وأنها بريئة من تهمة استعمال القوة ، أو التهديد بها . وهى ترجو أن تظهر مصر بعد ذلك فى مظهر المتعنت الذى يصم أذنه عن سماع كل رأى غير رأيه . ولكن هذه المحاولة ــ إن كان هذا هدفها ــ فهى مخفقة إخفاق مؤتمر لندن ، فمصر لم تتجاوز حقها أصلا ، ومصر لم تعتد على أحد ، ولم تلجأ إلى عنف ولا إلى شدة .

على أن الذى يضعف من هذه المحاولة ــ أن التلويح بالقوة لم يختف تماما ، وأن العمل على تعطيل الملاحة فى القناة ، بإغراء المرشدين الأجانب على ترك عملهم بها ، وبمنع من كان منهم فى إجازة من العودة إلى عمله ــ مستمر ، إلا أن العالم كله يسجل هـذا ويرقبه ، ويثبت عنده أنه فى الوقت الذى تعمل فيـه دول الغرب على تعطيل الملاحة بهذه الوسائل ، تبذل مصر أقصى الجهد ؛ لتكون هذه الملاحة فى أعلى مستوى ، وبذلك تتكرر قصة سيدنا سليمان مع المرأتين المتنازعتين على طفل واحد . فقد أبت أم الطفل أن تقتسمه مع غريمتها؛ لأنه ابنها الذى يجرى دمها فى عروقه ، ولأنه قطعة منها لا ينفصل عنها، بينما رحبت المرأة المدعية الكاذبة بالتقسيم . هكذا القناة ، فهى من مصر

الوليد العزيز الذى عانت من أجله، وشقيت بسببه، وسهرت فى سبيله: الوليد العزيز الذى بقى بعيدا عنها، تراه ولا تمتد يدها إليه، ولا تملك أن تبذل له ما يستحقه، من رعاية .. وهى عند غير مصر وسيلة للسيطرة والإثراء على حساب الغير.

يجب أن نعرف أن نتيجة المعركة لا تتوقف إلا علينا نحن. ونحن الذين نقرر مصير القناة، وقد قررناه، ونحن الذين نقرر مصير هذه المؤتمرات واللجان، بتماسكنا وثباتنا وقوة أخلاقنا، بارتفاعنا إلى مستوى المعركة. يجب ألا نخاف. يجب أن نعد أنفسنا، لعمل يتفق مع جلال الدور الذى قمنا به وأحسنا أداءه. والله يتولانا بفضل من عنده.

الكبرى القوى

لقد أدرك الغرب أن ضمير العالم كله لم يرض عن التهديد باستعمال القوة ضد مصر ، بسبب تأميم شركة القناة ، فاضطر اضطراراً إلى اللجوء إلى الملاينة ، أو على الأقل بالتظاهر باللجوء إليها ، وكانت بعثة منزيس الخماسية صورة من صور هذه الملاينة المقصودة . ولست متشائماً حينما أقول ذلك ، و إنما أود أن أعرض صورة كاملة للموقف ؛ فإن الغرب الذى يوفد بعثة تعرض على رئيس جمهوريتنا ، وتشرح له آراء الدول التى أوفدت هذه اللجنة ، هو نفسه الذى ينقل إلى قبرص قوات فرنسية ، وهو نفسه الذى يحرك أساطيله فى البحر الأبيض المتوسط ، وهو نفسه الذى يقول : إن هذا كله ليس إلا احتياطاً لحماية أفراد الجاليات الفرنسية والإنجليزية فى مصر ، وفى البلاد العربية . وهى الجاليات التى تتلقى الأوامر من حكوماتها بأن تعود إلى بلادها ...

فالغرب جُبل على استعمال القوة ، وأَلِف الانتفاع بها ، والتهديد بخطرها ، وهو لا يحسن غيرها . وقد يحتاج إلى وقت طويل غاية

الطول ، ليبرأ من هذا المرض الفتاك . إن الغرب دخل بلادنا غازيا ، معتمداً على الأساطيل والمدافع ومستعينا بلون آخر من ألوان العنف ، هو الحرب النفسية التي سميت أخيرا بحرب الأعصاب ، وبالفتن التي تتقد فيها الشهوات والدسائس والأكاذيب والإشاعات كما تتقد النيران ، ولقد عاش فى الشرق القريب والبعيد يُخضع الناس بالقوة ، فكلما رفعوا رءوسهم ، أو حاولوا أن يرفعوها أرهبهم وسلط عليهم ألوانا من العذاب ، حتى يبقوا عبيدا لا يثقون فى أنفسهم ولا يقوون على أن يقولوا ما يخالج نفوسهم أو يساور قلوبهم . وقد أصبح ديدن حكام الغرب أن يستعملوا أقصى العنف فى أتفه المناسبات وأقلها اقتضاء للعنف والشدة ، حتى ظن بعض المفكرين أن الحكام الغربيين يتلذذون ويستمتعون بمرأى آلام الناس ومتاعبهم ، وأن هذا التلذذ والاستمتاع نوع من المرض الذى يصيب بعض الأفراد ، فلا تهدأ أعصابهم ، ولا يسرى عن نفوسهم إلا مشاهدة منظر من مناظر العذاب ، كسفك الدماء أو صراخ المجلودين . وقالوا : إن هذا المرض ينتقل إلى الأوروبى ، بمجرد انتقاله من بلاده التى تعلو فيها الصيحة للديمقراطية والاشتراكية ، وتروج فيها الكتب عن حرية الناس والمساواة والإخاء بينهم . وقد ذهب بعض هؤلاء المؤلفين إلى الزعم بأن

الأوروبي يفقد من إنسانيته ومن اتصاله بالحضارة الإنسانية درجة ، كلما تجاوزت به السفينة خطا من خطوط العرض نحو الجنوب ، فإذا ما وصل إلى خط الاستواء فقد كلّ تحضره ، وكل ما كسبه بفضل القراءة والدراسة والتعليم . والحق أن تاريخ الاستعمار الغربي ملىء بالأمثلة على ذلك ، ففي « امرتسار » بالهند ، شهدت الإنسانية صورة مروعة من صور مرض حب التعذيب المعروف (بالسادزم) .

وامرتسار هـذه ليست إلا قرية صغيرة فى إقليم البنجاب ، كان أهلوها يحتفلون بعد الحرب العالمية الأولى بأحد أعيادهم الوطنية فى معبد يسمى معبـد (جاليانا والله باج) ، وقد تجمعت الألوف لتصلى ، لا لتخطب ، ولا لتناقش شأنا من شئون السياسة ، ولـكن حاكم المنطقة الإنجليزى « الجنرال داير » ، كان ينفذ قانون رولات الذى صدر بعد الحرب ، والذى مد العمل بالأحكام العرفيـة التي كانت سائدة خلال الحرب ، وكانت الاجتماعات العامة ممنوعة بمقتضى هذا القانون ولـكن كل من يفهم القانون أو يفهم بسائطه وأبجدياته يعـلم أن الاجتماعات العامة التى تقصدها تلك القوانين العرفية أو العادية هى الاجتماعات السياسية ، ولـكن الجنرال داير ، خضوعا لهذا المرض البغيض ، اعتبر صلاة الناس الوادعين الفقراء فى قرية صغيرة بسيطة ـ مخالفة للقانون

وتحدياً لسلطة بريطانيا العظمى ؛ لذلك أمر بأن يحاط معبد القرية بالمدافع الرشاشة ، وأن يُحصد المصلون حصدا ، ونفذ الأمر ورأى النساء وأكثرهن من وراء الرجال ، والأغلب الأعم منهن فى سن الهرم ورأى الأطفال الصغار أنفسهم أمام أبواب الجحيم وقد فتحت ، بل رأوا خراطيم من السعير تصليهم نارا حامية . . مات من مات ، وجرح من جرح ، وظن أهل القرية أن نوبة المرض قد بارحت الجنرال العظيم ، ولكنها لسوء حظهم استمرت حتى اليوم التالى . . فقد أمر زعماء القرية وكبارها أن يزحفوا على ركبهم من بيوتهم حتى مكتب الضابط الإنجليزى إعلانا للندم ، وتكفيرا للذنب ، وطلبا للمغفرة . .

حدث هذا كله وقامت قيامة الإنسانية ، وصرخ الضمير العالمى صرخات مدوية ، واضطرت انجلترا أن تسحب الجنرال داير ، فهل تدرى ماذا فعلت الجالية البريطانية عشية سفره إلى بلاده ؟ . . لقد جمعت مالا ، واشترت به سيفا فى قراب من ذهب وفضة ، وقدمته لهذا الغازى الفاتح ! . ولست أدرى إذا كانت الجالية غمست السيف فى قطرات من الدم المسفوك فى « امرتسار » أم لم تفعل ، فقد كان مثل هذا السيف خليقا بأن يكون أجمل وأكثر تعبيرا عن الفكرة التى أُعدّ لها ، إذا كان يقطر من دم الشيوخ الفقراء والأطفال والنساء . .

ومثل هذا حدث فى مصر ، فقد مات أحد الضباط الإنجليز فى ١٣ من يونيه سنة ١٩٠٦ عند قرية « سرس » فشنقت بريطانيا رجالا ، وجلدت آخرين فى القرية التى مات عندها هـذا الضابط ، ليرى أهل دنشواى كيف تملك بريطانيا العظمى وسائل ووسائط من التعذيب الرهيب .

هـذا الغرب ، أعنى حكام الغرب ، لا يفهمون فى التعامل مع الشرق إلا هـذا الأسلوب المَرَضى ، وقد يفـكر بعضهم فى أن يجنح للسلم ، أو أن يعالج الأمور بالحـكمة ، أو أن يتدارك ما أفسدته القوة ، فإذا حب العنف ، وحب المباهاة به ، والميل إلى التخويف منه يغلبهم أو يغلب الذين حولهم ، فتعاودهم الرغبة فى هذا الاستمتاع الحرام الذى تأباه الأديان والشرائع ، والذى تنهى عنـه مواثيق الأطلنطى وهيئة الأمم المتحدة والأحاديث الجميلة عن المحبة والمودة بين الناس . . .

وإنى لأعجب ـ كما يعجب أى إنسان به مسكة من عقلـ ـمن الجمع بين مجئ لجنـة منزيس وبين نقل الأساطيل واستصدار القوانين الجديدة الغريبة التى تخول لبريطانيا أن تستقبل فى ممتلـكاتها جيوشا أجنبية لتستضيف الجزيرة المنـكوبة ، قبرص ، جيوشا فرنسية . كل

ذلك بقصد الاحتياط !!! و بقصد حماية العائلات الفرنسية والإنجليزية والأموال !!!

ياله من احتياط أشبه شيء بالاحتياط الذى يتخذه الاستعمار كلما أراد أن يفترى على شعب يطالب بحق من حقوقه ! .

ومهما كانت غلبة العنف على تفكير الغرب ، وشدة ميله إلى القهر والاستعلاء فلم يعد سيدا فى هذا العالم ، يفعل ما يشاء حينما يشاء ؛ فقد تغير العالم ، وجَدَّت قُوى لا شك أن الغرب يحسب لها ألف حساب ! .

ولكن ما هى أكبر هذه القوى ؟

أكبر هذه القوى ، هو أنفسنا نحن ، فنحن فى نظر الغرب فريسة من فرائسه ، وهم وحوش الغاب ، قبل أن يفترس الوحش حيوانا أضعف منه يزأر زئيرا يخيف به الفريسة ، ويشلها عن الحركة والتصرف . وما نراه من مظاهر القوة والاستعداد لها من قبيل هذا الزئير . والغاية منه أن نخاف وأن نجمد ، وأن نصبح لقمة سائغة . فالرد على ذلك أن نقول للغرب : لن نخاف ، إننا لا نتحداك ولا نستثيرك ، ولا نبحث عن أسباب المشاحنة معك ، ولكننا آخر الأمر لا نخشاك ؛ لأننا أيضا آخر الأمر ، أقوى منك ؛ لأننا هنا فى بيتنا ندافع عن حقنا ولا ننكر حقا لأحد ولا نضيع مصلحة لأحد .

وأنا أقول إن أقوى القوى التي ستحدد مصير هذه المشكلة هي الشعب المصري ؛ لأن العبرة لم تكن في التاريخ أبدا بالضخامة ولا بكثرة العدد ؛ إن انجلترا نفسها تعرف أن أسطولها الصغير هزم أسطول الأرمادا الإسباني بمراكبه الضخمة ، ونحن نعرف كيف وقفت شعوب صغيرة أمام دول كبيرة ، نعرف كيف قاومت اليونان العدوان الفاشيستي ، ونعرف كيف طردت تركيا في عهد مصطفى كمال الحلفاء من استانبول والأناضول حينما كانت هي وشعوب العرب والمسلمين جميعا من خلفها ، وحينما كانت تدافع عن حقها واستقلالها .

إن الشعوب بمقدار ما فيها من عزم ورغبة في الحياة وإيمان بنفسها . ولقد شاهدتُ ألمانيا بعد أن مُحيت من الوجود مدنها ، وحُطمت مصانعها ، ونقلت البقية الباقية من هذه المصانع التي نجت من التخريب والتدمير ، فرأيت كيف استطاعت تلك الأمة أن تعيد بناء نفسها ، وأن تحل محل المصانع التي دمرت أخرى حديثة . وكل ما بقي من المصانع القديمة ينظر إليه كأنه ماض متلكئ يعوق إنتاجهم ، ويؤخر تقدمهم . لقد فاقوا في الإنتاج المنتصرين ؛ لأنهم يؤمنون بأنفسهم . . .

فلتكن هذه الأمثلة نصب أعيننا ليفهم الغرب أننا لن نخاف ، فسننتصر وننقذ العالم من ويلات الحروب .

مَن الذى يعوق حرية الملاحة ؟

انعقد مؤتمر ثان فى لندن من أجل القناة ، أو من أجل التدبر فى الخروج من الورطة التى أوقع الغرب فيها نفسه باعتباره تأميم شركة القناة عملا لا يمكن السكوت عليه . وقد كان محتملا أن تسلط الأضواء على هـذا المؤتمر ، وأن يكون برجاله وبالمـكان الذى انعقد فيه وللموضوع الذى جاء يناقشه مركزا للاهتمام ، ولـكن المتابعين لمجريات الأمور ، والمعقبين على أنباء السياسة يحسون أن مركز الثقل وموضع الاهتمام هو القناة نفسها ، وما يجرى فيها . لقد تحول النزاع حول تأميم شركة القناة إلى مايشبه المسرحية العنيفة التى يسميها الاصطلاح المسرحى بـ « الميلودراما » ، وفى كل مسرحية قمة تصل معها أحداثها إلى أقصى الحد من الخطورة والتعقيد ، فيحبس النظارة أنفاسهم ، وتتأزم أعصابهم ويشفقون مما ستطالعهم به الحوادث . . وقد كان يوم ١٥ من سبتمبر سنة ١٩٥٦ هو أقصى القمة فى مسرحية القناة. فقد فـكر الغرب ودبر، وأسفر كل تفـكيره ، وأفضى كل تدبيره إلى خطة ظنها محكمة شديدة الإحكام ، كان هدفها الواضح وقف الملاحة فى القناة بسحب المرشدين

الأجانب ، وكان يظن أنه لو نجح فى هذا التعطيل لاستطاع أن يعبئ الرأى العام العالمى إلى صفه ؛ وأن يجند الأقلام والألسن لترويج دعوته ، ودعم حجته فى أن يد مصر على القناة يد غير أمينة ؛ لأنه لاخبرة لها بشئون الملاحة الدقيقة ، ولأنها لا تنظر إلى القناة ـ كما ينظر العالم إليها ـ على أنها ممر دولى للملاحة العالمية ، بل على أنها مصدر للمال ، وسبب للثراء ، ووسيلة للكسب السياسى ، وعنصر من عناصر الضغط الدولى .

ولبث وزراء الخارجية المحنكون فى الغرب فى مكاتبهم ، وفى قلوبهم طمأنينة عميقة مبعثها أن الملاحة فى القناة ستتوقف لأول مرة من سبع وثمانين سنة . . .

وصلت الدراما أو الميلودراما إلى قمتها ، وكما يفاجأ النظارة فى المسرحيات بما يتوقعونه ، فوجئ السادة وزراء الخارجية بشىء لم يدر بخلدهم ، ولم يجر فى حسابهم ، فقد استطاع هؤلاء الشبان المصريون الأبطال مع حفنة من إخواننا اليونانيين ـ أن يديروا القناة فى مستوى عال ، وأن يحفظوا للعالم هذا الشريان الحيوى الذى صنعناه بأيدينا ، ودفعنا مهره سيلا متدفقا من مالنا ودمنا ! .

وبذلك تجددت فى التاريخ قصة النبى سليمان والطفل ، التى سبق

أن أشرت إليها فى حديث سابق ، والتى أستأذن القارئ فى أن أستعيرها مرة أخرى ، فى شرح موقف مصر والغرب من حرية الملاحة فى القناة .

فحرية الملاحة فى القناة هى ابن مصر ، الذى اختلط بلحمها ودمها. وحرية الملاحة فى القناة عند انجلترا وفرنسا وأمريكا هى مجرد ذريعة للكيد لمصر ، وإظهارها فى مظهر الأمة المتخلفة العاجزة عن إدارة هذا المرفق العظيم، وفى ثوب المتعصب الذى تعميه القومية المصرية، أوالقومية العربية ، عن تبين مصالح العالم ، ورعايتها . ولذلك كانت حرية الملاحة عند مصر ، واستمرارها ـ هدفاً لا يغيب عن المصريين ، كما لايغيب عن عين الأم طفلها ، فإن غاب فهو ملء فؤادها ، وملء خاطرها على حين كان من السهل أن تضحى بالطفل من لاتمت إليه بصلة الدم والروح ، دون أن تسكب دمعة واحدة .

ولقد اضطر النبى سليمان ليعرف أىُّ المرأتين أمٌّ للطفل الذى تنازعتا عليه أمامه ، فاقترح أن يقسم الطفل قسمين فصرخت الأم جزعا وفزعا ، وفرحت الأم المدعية الكاذبة بالحل ورحبت به .

هذا ماحدث يوم ١٥ من سبتمبر . كان الغرب يتمنى أن تتوقف الملاحة فى القناة ، وهو ، دون شك ، لايزال يرجو من السماء أن تجود

عليه بأحداث فى القناة ، أما الأم فقد سهرت مع أولادها ، وعمل المرشدون المصريون عملا لايسوغ أن يمر بنا دون أن ندرك بالضبط معناه ، ودون أن نحيط بمدلوله وآثاره .

فى حياة الأمم لحظات حاسمة ، تمتحن فيها إرادتها ، وقد تكون هذه اللحظات قصيرة ، وقد يكون العمل الذى تم فيها بسيطا لادوىّ فيه ، ولكنه مع ذلك يكشف روح الأمة ، ويظهر طبيعتها ومدى إيمانها . ففى تاريخ الإسلام مثلا يعتبر من المواقف الحاسمة وقفة الرسول صلى الله عليه وسلم فى يوم حنين، حينما أعجبت المسلمين كثرتهم فاستهانوا بأعدائهم ، فما لبثوا أن رأوا الهزيمة تحيق بهم ، فولوا الأدبار وقد تولاهم فزع كبير ، ولكن رسول الله لم يفارقه فى هذه اللحظة هدوءه ، فلبث يدعو المسلمين فترة إلى الثبات ، وهم لايسمعون ، ولا يلقون بالهم إليه ، ثم أذن الله بالفرج فانتبه إليه أحدهم ، فلبى النداء ، ومعه الآخرون فثبت كل المسلمين ، وعادت الطمأنينة إلى النفوس ، فاستأنفوا قتالهم ، وواجهوا أعداءهم وكروا بعد فرار ، ولا يختلف أحد من المؤرخين فى أنهم لو واصلوا فرارهم ، لكانت حنين القاضية على الإسلام . وهكذا كانت وقفة إخواننا المرشدين فى القناة ؛ لقد أثبتوا أن الغرب عاجز عن أن يمنع الملاحة فى القناة بطريق سلمى ، وأن السبيل الوحيدة

أمامه ـ إن أراد أن يعطلها ، أو يوقفها ـ أن يسفر عن نواياه وأن يتحمل أمام التاريخ وزر الحرب. لقد أثبتوا أيضا أن مصر التى تحرص على سيادتها ، وتدافع عنها فى عزة شديدة ، تفهم تبعات هذه السيادة وثمنها الفادح . فالسيادة بين الناس هى مسئوليات وواجبات ، هى ضرائب وتكاليف . فإذا كانت السيادة منتزعة من أنياب الطامعين فيها والمعتدين عليها ، فهى مسئوليات أفدح وتبعات أعظم .

لقد ثبت للعالم إذن أن مصر الجديدة التى ولدت منذ أربعة أعوام ليست أمة جعجعة وصراخ ، وأنها حينما أعلنت أنها تريد أن تبنى نفسها من جديد كانت تعى ماتقوله ، وتفهمه على وجهه الصحيح .

إن فى وقفة إخواننا المرشدين المشرفة المجيدة ، ابتداء من ليلة ١٤ ، ١٥ من سبتمبر حتى اليوم ، معانى ودلالات كثيرة ، لايجب أن نمر عليها مر الكرام .

إن الغرب لايفتأ يحدثنا عن مشروعاته العظيمة التى تتبناها حينا الأمم المتحدة ، والتى تتبرع بها حينا آخر أمم غنية تقدمت علينا فى ميادين العلم والفن ، وتغلبت على العالم بالحديد والنار . وغاية هذه المشروعات أن تأخذ بيد الأمم المتخلفة، والشعوب التى يعانى اقتصادها ضعفاً ، تمنحها مع المال خبرة فنية . وهذا كلام يطيب لنا كثيرا نحن

الإنسانيين سماعُه ؛ لأنه يعرض صورة من صور التعاون بين الأمم : قويها وضعيفها ، غنيها وفقيرها . ولـكن حينما نذكر أن شركة قناة السويس كانت أكبر شركات الغرب وهى ثمرة من ثمار الغرب . . حينما نذكر أن شركة قناة السويس لبثت فى أراضينا سبعة وثمانين عاما على الأقل . إذا أسقطنا من حسابنا المدة الواقعة بين صدور الفرمان الأول فى سنة ١٨٥٤ ، وافتتاح القناة للملاحة فعلا فى سنة ١٨٦٩ . سبع وثمانون سنة كاملة عاشت فيها الحضارة الغربية بيننا ممثلة فى شركة القناة ، فماذا فعلت هـذه الحضارة فى سبيل تدريب وإعداد جيل من أبناء الوطن الذى تجرى القناة فى أرضه ؟ لو تصورنا أن الشركة كانت تخرج ثلاثة من المرشدين كل عام لزاد عدد المرشدين المصريين عن عدد مرشدى الشركة كلهم يوم تأميمها فى ٢٦ من يوليه سنة ١٩٥٦ ، إذ كان عددهم فى ذلك اليوم من مصريين وأجانب مائتين وأربعـة من المرشدين .

لقد كان تعطيل الملاحة فى القنال ، أملا مرتقبا فى يوم ١٥ من سبتمبر ، ذلك لأن الراغبين فى الحرب أو استعمال القوة كانوا يبحثون عن مبرر أو ذريعـة لاستعمالها ، أو على الأقل للتقدم خطوة فى طريق التلويح بها ، وقد قالت جريدة فرانس أوبزرفاتير فى هـذا الصدد :

«إن الفكرة التي كانت تجول في ذهن الحكومتين الفرنسية والإنجليزية حينما دعتا مؤتمر لندن للانعقاد ـ كانت الحصول على موافقة المؤتمر على مشروع يتعين على عبد الناصر إما قبوله أو رفضه . فإن قبله سجل على الدكتاتور تسليمه ورضوخه . و إن رفضه ستعمل الحكومتان باسم الدول المجتمعة . ولكن اتضح أن تدبير الحكومتين لم يفلح ، إذ أن غالبية الأعضاء لم توافق إلا على سلوك سبيل المصالحة والتوفيق بدلا من توجيه الإنذارات . وعلى ذلك فإن القيام بأى عمل عسكرى إنما يتوقف على وقوع أى حادث فى منطقة القنال لا سيما عقب سفر جميع المرشدين الأوروبيين وقد اعتبر يوم ١٥ من سبتمبر موعدا ملائما فى هذا الصدد .. »

إن النجاح فى معاركنا الآن مرده إلينا · مهما اجتمع الناس علينا ، فإن الحق لا يضيعه إلا صاحبه إذا جبن أو تكاسل ، أو ظن فى الله الظنون ...

--->>>>•<<<<---

تناقض مكشوف

قالت جريدة البروجريه الفرنسية فى الخامس والعشرين من شهر سبتمبر الماضى مانصه :

« فى الثالث عشر من شهر سبتمبر كشف المستر سلوين لويد عما حال بين بريطانيا و بين طلب دعوة مجلس الأمن للانعقاد من أجل مشكلة قناة السويس ، وقال : « إن بطء الإجراءات فى هذه المنظمةهو السبب فى عـدم اللجوء إلى مجلس الأمن ، فى حين أن مشكلة القناة تتطلب حلا عاجلا » وفى الثالث والعشرين من شهر سبتمبر تعقد حكومتا لندن و باريس نفس المجلس من أجل مشكلة القناة نفسها ، مع أن حجج المستر سلوين لويد لم تفقد شيئا من قيمتها .

وقالت جريدة الفيجارو الفرنسية فى ٢٨ من سبتمبر :

« لقد أعلن إيدن ومولييه مرارا أنهما عازمان على استخدام القوة لتسوية مشكلة القناة ومشكلة الرئيس عبد الناصر إلا أنهما منيا اليوم بالهزيمة فيما يبدو ، بل إنهما قد منيا بالفعل بها ، فإن الجمود والسكينة

ليعادلان الهزيمة ، لاسيما إذا ماجاءا بعد كل هذه الخطب والتصريحات التى تضمنت قرارات بدت أنهـا حازمة ، وأنه لارجعة عنها . وهكذا عدنا بعد شهرين إلى الطريقة الدبلوماسية التى كانوا يعتبرونها منـذ البداية طريقة لطيفة غير فعالة . . . » .

إن ما استوقف نظر هاتين الجريدتين ، ودعاهما إلى التساؤل قد يستوقف نظر جميع المشتغلين بالشئون الدوليـة ، ويحملهم على نفس التساؤل ؛ فقد كان مستر إيدن رافضا ، كل الرفض ، أن يعد بعرض أمر مشكلة القنـاة على الأمم المتحدة ، كما أصر إلى آخر لحظة على أنه لن يلتزم العمل فى حـدود ما تقرره الأمم المتحدة ، إن لم يحصل منها على ما يتفق مع الحل المثالى فى نظره ..

فما الذى حدث حتى قلب سياسة إيدن ومولييه فى يوم وليلة ؟ . ما الذى دعاهما إلى الذهاب إلى مجلس الأمن ، وعرض الأمر على الأمم المتحدة التى كانت فى نظرهما أداة غير منتجة ، ومنظمة غير فعالة ، لأنها بطيئة لا تلحق بالمشكلات السريعة ؟

وقبل أن أجيب على هـذا السؤال أحب أن نتذاكر سويا ما نعرفه عن الأمم المتحدة عموما ومجلس الأمن خصوصا ؛ فإننا قد نـكون فى حاجة إلى تجديد ما نعرفه عنهما فى هـذه الأيام ؛ إذ أننا سنسمع الـكثير عنهما فى الأيام القادمة .

من الأحلام القديمة التى تساور البشر أن يقوم بين الدول نظام يشبه نظام المحاكم بين الأفراد ، تختصم إليه الدول قويها وضعيفها ، كما يختصم الأفراد على اختلاف طبقاتهم إلى القاضى . وقد أخفقت المحاولة الأولى لتنفيذ هذا الحلم عقب الحرب العالمية الأولى التى انتهت فى الحادى عشر من نوفمبر سنة ١٩١٨ ، إذ أن عصبة الأمم لم تحل مشكلة واحدة من مشكلات الدول . وفى الرابع عشر من أغسطس سنة ١٩٤١ بعد أن انقضى على نشوب الحرب العالميـة الثانية نحو عامين خرج رئيس وزراء بريطانيـا ، ورئيس الولايات المتحدة بتصريح عرف فيما بعد بتصريح الأطلسى ، جددا فيـه الأمل القديم : أمل قيام منظمة ، أو نظام دائم للسلام العام . وتوالت بعد ذلك تصريحات رؤساء الدول الأربعة المتحالفة : الولايات المتحدة وبريطانيا والاتحاد السوفييتى والصين ، فى موسكو وفى طهران وفى يالتا ، معلنة كلهـا بأن هؤلاء الرؤساء يؤمنون بأنه لا بد من قيام نظام يمنع تهديد السلام العالمى بالقوة ، وكان أجمل ما قدموه للعالم ، ما جاء فى تصريح طهران فى أول ديسمبر سنة ١٩٤٣ من أنهم منتوون أن يؤلفوا من الشعوب التى يمثلونها ، وسائر الشعوب « أسرة عالمية للشعوب الديمقراطية » .

وفى سنة ١٩٤٥ انعقد مؤتمر سان فرنسيسكو فى المدة ما بين

الخامس والعشرين من أبريل حتى الخامس والعشرين من يونيه ، لوضع ميثاق الأمم المتحدة . وفى يوم ٢٦ من يونيه وقع هـذا الميثاق مندوبو خمسين دولة ، فيما عدا بولندا التى ترك لإمضاء مندوبها فراغ؛ إذ كان ثمة خلاف حول شرعية الحكومة التى كانت قائمة وقت ذاك فى بولندا . وقع الميثاق ، وقام فى وهم الناس أن الحلم الجديد قد تحقق ، وأن التهديد بالقوة قد انتهى ، وأن مظاهر السيطرة والغلبة التى يمارسها الأقوياء فى أوطان الضعفاء قد زالت ، وزالت معها بواعثها . ولم يلق الناس إلا خيبة أمل تجددت ، وقد تجرع هذه الخيبة أهل الشرق الأوسط أو العرب أكثر مما تجرع سواهم ؛ لأنهم يقيمون فى منطقة تغرى الطامعين بمركزها النادر و بما تحويه أرضها من خيرات وثروات ، وتحرك غرائزهم الأولى : غرائز الحيوان النائم فى نفس أكثر الناس .

والأمم المتحدة تتكون من ست هيئات : أولاها الجمعية العامة التى تضم كل أعضاء الأمم المتحدة . ثم مجلس الأمن، ثم المجلس الاقتصادى والاجتماعى ، ومجلس الوصاية ، ومحكمة العدل الدولية ، والأمانة العامة .

ولما كان النزاع الخاص بقناة السويس معروضا على مجلس الأمن ، فلنقصر الحديث عليه فنقول :

إنه يتكون من أحد عشر عضوا ، منهم خمسة دائمون ، هم الاتحاد

السوفييتى ، والولايات المتحدة ، وبريطانيا ، وفرنسا ، والصين . ثم ستة أعضاء غير دائمين تختارهم الجمعية العامة كل سنتين . والأعضاء غير الدائمين فى هذه الدورة هم استراليا ، إيران ، يوغسلافيا ، بلجيكا ، بيرو ، كوبا .

وأهم مايجب أن يعرف عن مجلس الأمن الآن ، هو نظام التصويت فيه ؛ إذ أن هناك نوعين من المسائل تعرض عليه ، ويقتضى قانونه فى أحد هذين النوعين أن يكون التصويت فيه بإجماع الأعضاء الخمسة الدائمين مع اثنين من الأعضاء غير الدائمين ، وهو المسائل الخاصة بموضوع الأمر المطروح على المجلس . أما النوع الثانى فهو المسائل المتعلقة بالإجراءات . وفى هذا النوع يكفى أن يصدر القرار بأصوات سبعة من الأعضاء ، لا يشترط أن يكون من بينها أصوات الخمسة الدائمين . ولكن لم يُهدَ مجلسُ الأمن ، ولا الجمعية العامة ، ولم يتفق الأعضاء الدائمون منذ ولدت الأمم المتحدة على تصريف لمسائل الإجراءات والمسائل الموضوعية . ولا نظن أنهم سيتفقون .

ومن النصوص الحساسة فى قانون الأمم المتحدة نص المادة السابعة والعشرين ؛ لأن هذا النص يحرم على الدول التى كانت طرفا فى نزاع أن تشترك فى القرار الخاص بهذا النزاع إذا طرح على المجلس ، وكانت

عضوا فيه ، سواء أكانت عضويتها دائمة ، أم مؤقته . ولكن القانون لاينص على مثل هذا التحريم إذا كان الأمر المطروح على المجلس خاصا بموقف قد يؤدى إلى احتكاك دولى أو قد يثير نزاعا . ومع ذلك فقد سكت القانون عن بيان ماهو النزاع ، وما هو الموقف الذى قد يؤدى إلى احتكاك دولى . وقد أدى سكوته إلى اختلاف كبير . وقد اقترحت الولايات المتحدة أن تمتنع الدول إذا كانت طرفا فى نزاع أو موقف من التصويت .

ولا شك أن النزاع القائم حول قناة السويس هو أخطر ما طرح على مجلس الأمن منذ أنشئ ، فقد حضر المجلس لأول مرة سبعة من وزراء الخارجية لسبع دول ، وستكون هذه النقط القانونية وغيرها من النقط مثارا لجدل كثير .

نعود إلى التساؤل الذى أشرنا إليه أوّلاً ، وأعنى التساؤل عن الأسباب التى غيرت سياسة بريطانيا وفرنسا ، ونقلتها من النقيض إلى النقيض !

الاستعمار بين تأييد باطل واتهام قاتل

انعقد مجلس الأمن بعد سبعين يوما تقريبا من تأميم شركة قناة السويس ، فى جو من التطلع والتساؤل ، وبعد فترة مليئة بالمناورات والتهديدات ، وفى أعقاب لجان ومؤتمرات ومناقشات حامية الوطيس فى البرلمانات . وكان مجرد دعوة المجلس للنظر فى هذه الأزمة التى خلقت خلقا ، وبولغ فيها ـ كسبا روحيا أثبت للمقرين بالقوة والمؤمنين بها أن صوت الشعوب أصبح قويا كسلاحهم وعتادهم ، إن لم يكن أبعد مدى وأعظم أثرا .

وقد سبق انعقاد المؤتمر ظاهرة طريفة ، والحق أنى لا أجد وصفا أليق بالتصريح الذى ألقى به مستر دالاس فى مؤتمره الصحفى الذى انعقد عشية مجلس الأمن ، من أنه ظاهرة طريفة . فقد أعلن مستر دالاس فى هذا المؤتمر أن الولايات المتحدة ستقف موقفا وسطا بين الاستعمار والأمم المتحدة ، فقد جاء بهذا التصريح فى هذا الوقت على غير انتظار من أصدقاء الولايات المتحدة ، وعلى الرغم من أن أحدا فى الدوائر

الغربية أو فى دوائر الأمم المتحدة ــ لم يتوقع أن يترتب على هذا التصريح تغيير أساسى ، أو تحول كبير ، أو حتى تحول جزئى ، إلا أن هذا التصريح أثار ثائرة الغرب ، فانهالت على صاحبه الصحف الإنجليزية والفرنسية لوماً وتأنيبا ، وأخذت كل من الدولتين تتنصل من نشاطها الاستعمارى ، وتدلل على أنها من فريق الدول المتحررة ، وأوردت كل منها على ذلك الأدلة والبراهين فذكرت صحف بريطانيا أن الإنجليز جلوا طواعية واختيارا عن مناطق كثيرة ، كالهند وبورما ومصر والسودان ، وأنهم فى صدد إصدار دساتير حرة لساحل الذهب ولغيرها من المناطق ، وقالت صحف فرنسا : إنها بدورها منحت بغير ضغط ولا إكراه ، ولمجرد حب الحرية ــ تونس ومراكش استقلالهما ، ولما قرأت هذا الكلام تساءلت ، وعلى شفتى ابتسامة ، عمن تكون الدول الاستعمارية إذن ؟ ! وقلت لم يبق إلا أن تكون مصر ، والدول الداعية إلى الحرية ، والمقاتلة فى سبيلها ــ هى الدول الاستعمارية ، ولم أكد أردد هذا التساؤل بينى وبين نفسى ، حتى وقع نظرى فى المقال الذى دافع فيه كاتبه عن روح الاستعمار فى بلاده ، على عبارة تتهم مصر بأنها الدولة الراغبة فى التوسع والفتح ؛ لذلك كان طبيعيا أن يقول محمود فوزى وزير خارجية مصر فى خطابه الهادىء الرصين أمام مجلس

الأمن ، وبعبارة ساخرة : إن مصر تتهم بتهديد الأمن : لأن مصر هى التى نقلت الجنود ، واتخذت الإجراءات الحربية والعسكرية خارج حدودها وفى شرق البحر الأبيض المتوسط .

ومهما قيل فى تصريح مستر دالاس ، ومهما كان تنصل الدول الاستعمارية من ميولها الاستعمارية ، ونشاطها المعادى لحريات الأمم والشعوب ، فإن دلالة هذه المواقف لا يجب أن تغيب عن أحد . لقد أصبح الاستعمار تهمة يبرأ منها مرتكبوها ، وأصبح مما يشرفهم ويطهر صفحتهم لا أمام المحافل الدولية وحدها ، بل أمام شعوبهم أنفسهم ـ أن يبرأوا إلى الله من الاستعمار ، وأن ينفوا عن أنفسهم تأييده والوقوف فى صفه . . فقد كان الاستعمار إلى وقت قريب عملا مشرفا ، تعلن دول الغرب أنه تُؤَدَّى به إلى الإنسانية خدمات جليلة ، وأنها تنقل بفضله إلى أهل آسيا وأفريقيا المتخلفين الجهال المتعصبين ـ خيرات حضارة الرجل الأبيض .

وقد قيل فى تفسير تصريح مستر دالاس إنه اضطر إليه تحت ضغط اعتبارات الانتخابات لرآسة الجمهورية التى ستجرى فى السادس من نوفمبر القادم ، وإنه يشترى به عطف الناخب الأمريكى ، وهذا التفسير يؤكد للشعوب أنها فى طريق النجاح ، وأن الانتصارات التى نحققها

أكبر من أن نتجاهلها أو ننقص من قدرها ؛ فليس بالشيء القليل أن تبلغ كراهية الرأى العام للاستعمار والنشاط الاستعمارى ، حتى فى أمريكا ، إلى الحد الذى تلجئ هذه الكراهية وزير الخارجية الأمريكى أن يترضى هذا الرأى العام بتصريح ضد الاستعمار ، حتى لو كانت الغاية من التصريح مجرد الترضية المؤقتة والتهدئة .

لقد استمعنا إلى خطب مجلس الأمن ، وسمعنا ما قاله ممثلو إحدى عشرة دولة ، فلا مبرر لإعادة ما قيل أو التعليق عليه ، ولكن واجب التاريخ يقتضينا أن نسجل لمصر هذا الأسلوب الهادئ فى عرض حججها ، وشرح قضيتها . فليس أليق بالحق من أن يكون المتحدثون باسمه ، والمدافعون عنه هادئين لا يفسد الغضب ما يقولون .

ولعل المواطنين لم يفتهم أن التصويت لم يجر على اقتراح بريطانيا وفرنسا ، وأنهما قبلتا أن يتحول المجلس ـ فى جلسات سرية ، تصحبها اتصالات شخصية ـ إلى لجنة مفاوضة واتصال مباشر .

وتقول إحدى الصحف الفرنسية : إن اقتراح عقد جلسات سرية ، وإن كان قد جاء على لسان مستر سلوين لويد وزير خارجية بريطانيا ، إلا أنه فى حقيقة الأمر اقتراح للمستر همرشولد السكرتير العام للأمم المتحدة ، لم تلبث الولايات المتحدة أن تبنته فارتضته بريطانيا

فرارا من تأليف اللجنة المتوازنة التى اقترحها وزير خارجية الاتحاد السوفيتى ، وفرارا مما هو أسوأ وهو استعمال الفيتو الروسى فى وجه الاقتراح الفرنسى والبريطانى .

وقد سارت الاجتماعات بين وزير خارجية مصر وفرنسا و بريطانيا بحضور السكرتير العام للأمم المتحدة فى جو من الكتمان والسرية ، فمنعت الصحف ، و بالتالى الرأى العام كله من معرفة ما يدور وراء الأبواب المغلقة ، و إن كان وزير خارجية فرنسا قد أعلن أنه لم يحدث تطور ما فى مواقف الأطراف المشتركة فى هذه المحادثات ، وأنه عائد إلى بلاده فى غده ، مالم يجد جديد ذو خطر يدعوه إلى البقاء فى نيو يورك ، وقد سبق ذلك سفر مستر دالاس إلى واشنطن فظن الظانون أن هذه المداولات لن تسفر عن شئ ، ولكن لم يلبث أن أعلن أن دالاس عائد إلى نيو يورك ، بل لم يلبث ايزنهاور نفسه أن أعلن أنه مستعد أن يحضر بنفسه إلى مجلس الأمن إذا اعتقد أن ذلك مما يساعد على الوصول إلى حل للمشكلة .

وقد انعقد مؤتمر المحافظين فى و يلز ، ووافق على قرار مؤ يد لسياسة إيدن ، وقد جاء هذا القرار فى خطب أشبه شىء بالموسيقى النحاسية ، فقد أطلق المحافظون المتشددون المعروفون بالداى هاروز Die Haros

مفرقعاتهم المألوفة ، وقد ذكر المطلعون على خفايا الأمور أن هذا التأييد الصاخب قصد به أولا رفع معنوية رئيس الحكومة الذى لازم فراشه بعد مرض مفاجىء ، وثانيا تنفيذ توصية لبعض خبراء السياسة الدولية فى نيويورك الذين زعموا أنه مما يدعم مركز بريطانيا ، ويقوى حجتها ويسند ظهرها ـ أن يظهر المحافظون متكاتفين متحدين من جهة ، وأن يبدوا متطرفين متشددين من جهة أخرى ، إلا أن صوت الحق الذى أصبح يتسرب الآن إلى كل معقل من معاقل الاستعمار والرجعية انطلق فى هذا المؤتمر على لسان عضو من أعضائه المحافظين أيضا ، كان صوت مستر «يانس» الذى وقف يندد بسياسة الوزارة البريطانية ، واتهمها بأنها تريد بالاتفاق مع فرنسا إرغام مصر على عقد اتفاق جديد فى ظل الحديد والنار ، وأنها تآمرت على سحب المرشدين ، وأشار إلى ثورة الجنود البريطانيين الذين استدعتهم حكومتهم أخيرا ، وبرر ثورتهم بأنهم يعلمون بأنهم يشتركون فى مهزلة ... وقد حاول رئيس المؤتمر أن يمنع هـذا الصوت المدافع ، فثار بعض الأعضاء تعصباً له ، وأتاحوا له فرصة يسجل فيها ، فى تاريخ هذه الأيام ، أن الشعوب تجد من ينصفها ، ويقف إلى صفها حتى فى مؤتمر حزب المحافظين .

ومع ذلك فليس عجيبا أن تتحرك إسرائيل فى هذه الأيام ، وأن

تهاجم العرب على الصورة التى وقعت فى ليلة يوم الأربعاء الماضى فى قلقيليه . إننا نخطىء كثيرا حينما نقول : إن الصهيونية هى أداة الاستعمار، لأن الصهيونية هى الاستعمار نفسه ؛ فإن جميع مشروعات الغزو والفتح الاستعمارى من قديم الزمن ، من خلفها صهيونيون يعتبرون استثمار الأموال فى فتح الأسواق بالجيوش والأساطيل و إخضاع الأمم بالحديد والنار — أكبر وسيلة من وسائل الاستثمار ، فإذا كان اليأس قد بلغ بالاستعمار مبلغ التفكير فى تحريك إسرائيل فإن هذا دليل على أن قبضة الدول الحرة قد اشتد ضغطها على رقبته ، ومعنى ذلك أن الموقف يقتضى المصريين ، ويقتضى العرب مزيدا من اليقظة والانتباه ، ومزيدا من التماسك والتلاصق ، فالساعات السابقة على النصر هى أحق الساعات بالسهر واليقظة والاتحاد والتضحية .

—⊰⊰⊰✿⊱⊱⊱—

أسرار المفاجآت الاستعمارية

لم يكد مجلس الأمن يصدر قراره بعد جلسة علنية استمرت إلى الساعات الأولى من الصباح ، حتى امتلأ الجو بعشرات أو مئات من الأسئلة كل منها يحتاج إلى جواب واحد على الأقل ، ومع ذلك يعثر المتسائلون على ما يرضى تطلعهم إلى الحقيقة ، وتشوقهم للوقوف على بواعث ما يرون من تحركات ، وما يسمعون من أقوال وتصريحات .

وأكبر ما أثار تساؤل المتسائلين هـذا التحول المفاجىء الذى أصاب موقفى بريطانيا وفرنسا ، فقد اجتمع وزيرا خارجية البلدين مع وزير خارجية مصر فى اجتماعات خاصة بلغت ستا ، لم يشهدها معهم إلا السكرتير العام للأمم المتحدة خلف أبواب مغلقة ، لم تتح للعيون الباحثة عن أسباب المتعة والإثارة فرصة الرؤية ، ولا للأذهان التى ألفت تسقط الأخبار ، والنفخ فيها ، والافتتان فى عرضها فرصة السماع . كانت اجتماعات هادئة طويلة ، يشارك فيها من جانب مصر رجل لم يعرف الناس أطول منه بالا ، ولا أهدأ عصبا ، ولا أبعد عن العبارة المثيرة ، أو اللفظ الصارخ ». واستمرت هذه الاجتماعات والملايين

التى تتألف منها الشعوب فى الشرق والغرب تضرع إلى الله أن يكتب لها النجاح ، وأن يكتب مع نجاح هذه الاجتماعات نجاح الأمم المتحدة التى كاد يحسبها بعض الناس أحد الملاهى أو الاستعراضات الكبرى التى وصل الفن الأمريكى فى إتقانها وتجويدها أقصى الذروة ...

وعلم ، بلا أدنى جدال أو شك ، أن الوزراء الثلاثة مع ممثل الأمم المتحدة قد وصلوا إلى مبادئ ستة ، سيتقدمون بها إلى مجلس الأمن ، ليصدق عليها ويباركها ، ويدعو الأطراف المعنية إلى المفاوضة والمحادثة على أساسها ، بعيدا عن شرعة القوة ، وسنة الغابة ؛ وأن يستعيد البشر صفاتهم العظيمة التى كسبوها خلال أجيال متعاقبة من الحضارات والمدنيات ، وبفضل جهود متصلة من الأنبياء والمفكرين وأهل الرأى . . .

وعرضت على مجلس الأمن المبادئ الستة ، وأفعمت القلوب سرورا وسعادة ، وفجأة حدث مثل مايحدث فى بعض بلادنا : حدث أن فوجئ هذا الفرح القائم بمن لوّح فى الهواء بعكاكيز ضخمة ، معلنا أن الفرح لايتم إلا إذا أعمل فى الثريّات المضيئة ، والمصابيح التى يتدفق منها نور جميل ــ تحطيما وتكسيرا . . !

فقد أضاف السيد سلوين لويد إلى المبادئ الستة فقرة قائمة

بذاتها ، خلاصتها أن ما انتهت إليه الدول الثمانى عشرة التى اشتركت فى مؤتمر لندن ، هو الوسيلة إلى إتمام تسوية طيبة . .

ولم تكد تنتهى هذه المفاجأة حتى توالت مفاجآت من طبيعتها .. فقد تحدث السيد أنطونى إيدن ، بعد أن بارح فراش المرض ، فى مؤتمر المحافظين فأعلن أن بريطانيا لم تسقط القوة من حسابها ، وأن سياسة بريطانيا التقليدية تقوم على اعتبار أن القوة آخر حل للمشكلات .

وتصاعدت المفاجأة فى سلم الضخامة والكبر ، فقد تذكرت بريطانيا فجأة تعهداتها للأردن ، وأشفقت عليه من هجمات إسرائيل التى تزداد شدة ، ويتسع نطاقها . وأعلنت أنها لابد أن تنفذ هذه التعهدات إذا ماتعرض الأردن للهجوم ، وولدت هذه المفاجأة مفاجأة تحمل على وجهها تقاطيع أمها ، كما تجرى فى عروقها دماء تلك الأم ، تلك هى مفاجأة تحرك قوات عراقية ، غايتها الدخول إلى الأردن . وأعلنت بريطانيا أنها تحركات مباركة ؛ لأنها تمنح الشرق الأوسط استقرارا ، وبريطانيا لاتحب لهذا الشرق السعيد بصداقتها ومودتها إلا الأمن والاستقرار . .!

فما هذا كله ؟ .

لنفهم هذه المسائل جميعا ، لابدلنا من الرجوع إلى أصلين : أحدهما بعيد ، وثانيهما قريب ، وقد يكون أيسر تناولا أن نبدأ بالقريب ! .

ولقد أشرت إلى الأصل القريب فى أحاديثى أكثر من مرة . لماذا ذهبت بريطانيا وفرنسا فجأة إلى مجلس الأمن بعد أن أبدتا عناداً فى مجرد الموافقة على التأمل فى الفكرة ، وإجالتها فى رأسها ؟ !

إن بريطانيا لم تذهب ومعها زميلتها فرنسا إلى مجلس الأمن إيمانا به ولا أملا فى تحقيق خير لها أو للعالم من ورائه . بل إنها على ألسنة الكثير من المسئولين والصحفيين تهكمت على هذه المنظمة ، ورمتها بالعجز وعدم الفعلية ، كما فعل ذلك السيد بينو فى عبارة لاذعة مهينة . وقد ذكرت إحدى الصحف البريطانية فى بيان لها ما حمل إيدن على الذهاب إلى مجلس الأمن ، فقالت فى الخامس عشر من الشهر الحالى :

« الواقع أن إيدن لم يتعهد باحترام القانون الدولى إلا بعد أن تحداه الكثير من الصحف ، وبعد أن أزعجته احتجاجات دول الكومنولث ، وبعد أن واجه موجة من السخط والغضب من البرلمان عند دعوته للانعقاد . ولكنه مع ذلك ما زال مترددا »

وقالت جريدة فرنسية : « إن بينو أراد أن يعلن عن عدم احترامه لمجلس الأمن وللأمم المتحدة ، فحزم متاعه ، وأعلن أنه عائد إلى بلاده

يوم السبت الماضى قبل أن تنتهى مداولات مجلس الأمن ، وقبل أن يصدر منه قرار فى المسألة »

فبريطانيا وفرنسا لم تذهبا إلى مجلس الأمن احتراما له ، ولا أملا فيه ، ولكن خضوعا لضغط هائل لم يسبق أن تعرضت له حكومتان لا فى الغرب ولا فى الشرق .

أما الأصل البعيد ، فما يحدث الآن فى الشرق الأوسط . ولا بد لعرضه من الرجوع إلى ما قبل الحرب العالمية الأولى .

فقد بدأت الحرب العالمية الأولى فى أغسطس سنة ١٩١٤ ، وكانت بريطانيا وفرنسا حليفتين ، وكان المعسكر المضاد لهما يتألف من ألمانيا وتركيا ، ولم تكن ألمانيا تملك شيئا ذا قيمة من المستعمرات ، وإنما كانت تركيا صاحبة الولاية على قسم شهى من العالم المعمور المتمدين : قسم سال له لعاب كل مستعمر على مر الأيام والحقب . ذلك هو الشرق العربى الذى يضم العراق والشام وفلسطين ، وبينا كانت الحرب تدور قسم الحليفان بينهما أسلاب المعركة قبل أن تنتهى — فى معاهدة سرية هى معاهدة « سايكس — بيكو » . وكانت روسيا القيصرية حليفة لهما ، وكانت تظن أنها ستأخذ شيئا من أسلاب المعركة ، ولكن هذه المعاهدة السرية استبعدت روسيا تماما من الشرق

العربى . وانتهت الحرب ، وأصبحت فرنسا شريكة لبريطانيا فى هذه البقعة الحية من العالم . . ولكنهما كانا شريكين يضمران لبعضهما الكراهية ، ويظهران المودة . كانت فرنسا تعتقد أنها غبنت ؛ إذ لم تخرج إلا بالامتداد على سوريا ولبنان . وكانت بريطانيا بدورها تعتقد أن فرنسا أخذت أكثر مما تستحق . كانت بريطانيا تود أن تطرد فرنسا على حين تمنت فرنسا أن توسع رقعتها . .

وكانت السياسة البريطانيـة قد رسمت سياستها على أساس طرد فرنسا من سوريا وإنشاء دولة عربية أكبر خاضعة للنفوذ البريطانى ، تضم سوريا والعراق وشرق الأردن . ونجحت بريطانيا فى استغلال ما أصاب فرنسا من ضعف وهزال شديدين بعد أن اقتحمتها جيوش هتلر فى الحرب العالمية الثانيـة ، وبقيت الخطوة الثانية ، وهى الأكثر تعقيدا . .

وقد رسم تدبير بريطانيا بعد الحرب العالمية الثانيـة ، على أن تجلو عن الشرق العربى ، اتقاء لغضب الحركة الوطنية العربية التى تزداد على الأيام ضراوة وشدة ، فى مقابل أن تلبس نفوذها ثوبا جديدا أجمل من ثوب الاحتلال العسكرى ، والقواعد الحربيـة . وبذلت الكثير من جهودها فى خلق الصيغ البراقة ، وعرضها على الدول العربية ، ولكن

ذهبت هـذه الجهود جميعا أدراج الرياح ، فقد رفض الشعب المصرى اتفاقية (صدقى بيفن) ، ورفض الشعب العراقى اتفاقية بورتسموث ، ورفضت الحكومة المصرية ما أسفرت عنه محادثات (كامبل ـ خشبة) بشأن الموقف فى السودان ...

لم تنجح إذاً الوسائل الملفوفة ، ولم يُجْدِ الدوران . فما هو الطريق المباشر ؟ .

كانت بريطانيا قد قدرت منذ البداية أنها لا تستطيع أن تخضع العرب إلى أجل غـير مسمى لحديدها ونارها ، وأن كل ماتبرمه معهم من معاهدات ومحالفات سيكتسحه نار وعيهم الذى سينمو مع الزمن ، ثم إدراكهم ، وأخيرا تصميمهم وعزمهم . فما الذى يبقيها بين العرب ؟ ما الذى يمكنها من تثبيت قدمها فى أرضهم إلى الأبد ؟. كانت فـكرة إسرائيل ، وإنشاء دولة لليهود فى المنطقة العربية ، هى الحل المثالى . وقد كان . ففى خـلال الحرب العظمى الأولى منحت على لسان بلفور وعدا لليهود بإقامة وطن قومى لهم ، وكلما اشتدت الحركة الوطنية العربية انتقل هذا الوطن القومى إلى دور جديد . فلمـا يئست بريطانيا من أن تخدع العرب فى أعقاب الحرب العالمية الثانية وجب أن يتحول هذا الوطن القومى إلى دولة ، لذلك جلت بريطانيـا عن فلسطين بدعوى أنها

تعرضت لأذى كبير ، وضغط عسكرى لاقبل لها به ، وفى الواقع أنهـا جلت لتلد دولة إسرائيل خلفاً لهـا ، ولتلعب الدور الذى عجزت عنـه المعاهدات والمحالفات ، ومحاولات التضليل والتمويه .

ووجدت دولة إسرائيل فى يوم وليلة ، فتنافست الشركات الكبرى فى انجلترا وفرنسا وأمريكا فى خطب ودها ؛ لأن هذه الشركات جميعا تعلم بالضبط رسالة هـذه الدولة فى حماية تجارتها ، وترويج منتجاتها فى الشرق عمـوما ، وفى الشرق العربى على الأخص . . فإذا كانت إسرائيل ، وصحف إسرائيـل ، قد سكتت طوال أزمة القناة سكوتا مريبا ، وإذا كان موضوعها قد قفز الآن ، وبعد أن فشل كل تهديد بالقوة فى إخافة مصر ، وفشلت كل الوسائل الأخرى ، فالأمر اذاً مفهوم لايحتاج إلى بيان .

•••-•-••

بورسعيد تخلق الأمم المتحدة من جديد

ماذا يستطيع الشعراء والأدباء أن يقولوا فى هـذه الوقفة الرائعة لبور سعيد وشعبها وجيشها ، لقد قالوا كل ما استطاعوا أن يصوروا به هـذا المجد العريض ، وقد أطاعتهم الألفاظ والقوافى ، وانقادت لهم الأخيلة والأوزان ، وانهمر عليهم فيض الإلهام ، ثم نظروا بعد ذلك كله إلى شعرهم ونثرهم ، فرأوهما أقل من أن يفيا بور سعيد وشعبها وجيشها حقهم جميعا ودينهم ، لا فى عنق مصر ، ولا فى عنق العرب ، بل فى أعناق أبناء الإنسانية الذين جاهدوا الجيل بعد الجيل ، وتحت لواء الدين بعد الدين ، الذين خاضوا معا الثورة بعد الثورة ليعلوا كلمة الحق على كلمة القوة .

وأحسب أن الشعراء والأدباء والفنانين والمفـكرين باتوا اليـوم يؤمنون بأن وقفة بور سعيد ، وصمودها لأساطيل البحر والجو ـ عمل لا ينفرد بتسجيله ، ونظم الأناشيد له ، وقرض الشعر فيه ـ جيل واحد ، وأن هذه الأيام التى عاشتها مصر ، وعاشتها معها الأمم والشعوب ستبقى على مر السنين والأعوام مصدرا للوحى ، وستلهم أهل الفـكر والخيال

من مصورين وقصاصين وناظمى أغان ـ بمئـات وألوف من القصائد والقصص والصور .

وقد يكون شاقا على نفوسنا أن ندع الحديث عن بور سعيد ، وعما وقع فيها ؛ فإن كل قلب وكل خاطر وكل نفس تحس أنها مشدودة إلى هذه البقعة من أراضينا ، وكأنها أرض الأساطير والمعجزات ، ولـكننا قد سلمنا بأنه من العبث أن نحيط بهذا الذى جادت به الحيوية المصرية فى هذه الأيام ، فلنحاول أن نستقرئ نتائجه ، وأن نتأمل فيها ، ونفـكر فى مداها .

والحق أن النتائج التى حققتها هذه الأيام أكثر من أن يحيط بها الحصر ، فعلينا أن نقنع ببعضها .

لقد هدمت هذه الأيامُ أوهاما كثيرة كانت راسخة فى العقول والقلوب كالشم الرواسى . فلقد سخر الاستعمار كل وسيلة وكل أداة ؛ ليثبت فى يقيننا أننا أمة لا تقوى على تـكاليف الحرب ، ولا تطيق متاعبهـا ، وأن أبناء مصر أهل زراعة يفلحون الأرض ، ويحسنون استعمال الشادوف والمحراث ، ويعجزون عن استعمال السيف والمدفع . وقد كشفت هذه الأيام ، كما كشفت أخرى مثلها فى حياتنا القومية ، لمـاذا كان يقول الاستعمار ذلك عنا فى كل حين . ولمـاذا حالوا بين

الشعب المصرى و بين الجيش وممارسة فنون القتال . إنهم لم يفعلوا ذلك لأنهم وضعوا فى يد الشعب المصرى السيف أو المدفع ففر منهما ، وألقاهما فزعا أو جزعا من الموت ، بل إنهم فعلوا ذلك لأنهم ما وضعوا السيف والمدفع فى يدى المصرى ، حتى خرج من ثوب هـذا الفلاح الذى انصرف إلى الأرض يزرعها ـ مقاتلٌ ينازل الجيوش التى احترفت القتال فيُلحق بها الهزائم ، وما يزال وراء فلولها . . فنى التاريخ الحديث قاتل الفلاح المصرى وأبلى أعظم البلاء ، قاتل فى السهل والجبل ، فى الصحراء على صفحة المـاء ، قاتل فى أصقاع الشمال حيث البرد والزمهرير ، كما قاتل على مقربة من خط الاستواء حيث تشتعل نار الشمس ، قاتل فى العالم القديم والعالم الجديد . نعم قاتل الجيش المصرى فى المـكسيك ، وفى القرم ، وفى صحراء مصر ، وفى صحراء العرب ، قاتل فى السودان ، وفى البحرين: الأبيض والأحمر ، وترك للمؤرخين ورجال الحرب تراثا حربيا ، يروون مفاخره ، ويبرزون عجائبه . فالأصل فى المصرى أنه صانع حضارة ، فهو يزرع الأرض ويصلحها ، ويبدع فى الفنون ، ويجمّل وجه الحيـاة ، ويشق المصارف والمراوى ، ويبنى المساجد والمعابد : ينقش ويصور ، ويبنى ويرم ، ويخرج للناس مالا يفهمون سرّه من نتائج العلم ، وثمـار العقل . ولـكن إذا دعاه

داعى الجهاد ترك أدوات البناء ، وخرج من محاريب العبادة ، وأوقف تراتيله وتسابيحه لخالق الكون ، ليعبده سبحانه وتعالى على صورة أخرى من صور التجرد والفناء .. تلك هى صورة الاستشهاد والتضحية بالذات .

لقد حققنا فى هذه الأيام شيئا آخر . لقد صفّى الاستعمار على أيديكم، وبان للناس إفلاسه . ولا يحسب أحد أننا نبالغ فى هذا القول ؛ فالاستعمار مذهب من المذاهب ، وصل إلى أوْجِهِ فى القرنين : الثامن عشر والتاسع عشر ، وأصبح له كتّاب يدافعون عنه ، وصحف تروِّج له ، وأحزاب تعيش عليه وتعيش له ، وحكومات تنتسب له ، وتحالف شبيهاتها ومثيلاتها فى الدول. وقد كان هذا الاستعمار يتبجح بأنه يؤدى خدمة للأمم المختلفة ؛ لأنه يعلمها ، ويحفظ النظام فيها ، ويستخرج من أرضها ومائها الخيرات التى تعجز عن استغلالها ، وعن نفع الناس بها . وبقى هذا الاستعمار يتبجح ، ويسطو على الأمم ، ويقيم القواعد ، ويوزع أوطان الناس على من يحب ويهوى وحسبنا أن نذكر، أن بلفور وزير بريطانيا رأى أن من حقه أن يصرح بإنشاء وطن لليهود فى أرض فلسطين ، كأن فلسطين بيت أبيه ، ورثها مع ما ورث من متاع وألقاب . حسبنا أن انجلترا وفرنسا اتفقتا فيما بينهما فى سنة ١٩٠٤ على

أن تطلق كل منهما يد الأخرى فى جانب من بلاد العرب ، فلبريطانيا وادى النيل تستقل به ، ولفرنسا المغرب العربى فى شمالى أفريقيا . وقد كان الاستعمار لا يجد من يقاومه إلا على استحياء . فلما ضربت الاسكندرية مثلا فى سنة ١٨٨٢ ثم وقع الاحتلال لم يلعن هذا العمل الإجرامى ، ولم يندد به إلا كاتب أو اثنان ، ولم يقف فى وجهه فى مجلس العموم البريطانى إلا نائب أو نائبان ، وقد ابتلع الرأى العام العالمى تلك الأكذوبة الضخمة التى برر بها الاستعمار البريطانى احتلال مصر ، ألا وهى إقامة النظام فيها بعد ثورتها ضد الخديوى ، لكن ثورات الشعوب وقوماتها وزحفها المستمر ، ونضالها الدائب ، ضيق عليه المسالك ، وسد فى وجهه المنافذ ، إلا أن قضيته لم تعرض على بساط البحث ، ولم تصدر فيها الإنسانية حكمها القاصم وأمرها الحاسم حتى كانت فضيحة الدول الثلاث : بريطانيا وفرنسا ، وأداتهما التى صنعوها بأيديهم : إسرائيل فى سنة ١٩٥٦ ،ففى هذه المرة ردد الاستعمار نفس حججه القديمة ، وكأننا لا نزال فى مطالع القرن التاسع عشر، تحدث عن حفظ النظام وإقرار السلام فى مصر . وقال ما قاله فى سنة ١٨٨٢ وهو يحسب أن الناس لا يزالون يعيشون مثله فى ذلك العهد البائد ، وبعقلية تلك الأيام التى انقضت ، فخرج له لا من بلاد الشرق

وحدها ، ولا من الأمم التى حررت نفسها هذه الأيام ، ولا من المعسكرات التى تحار به وتخاصمه ، بل خرج له من صلب الشعوب التى نجم فيها ، .. خرج له الألوف ، ألوف الخطباء والكتاب والبرلمانيين والساسة والمفكرين . خرجت له اتحادات العمال ، والنساء والطلبة يسخرون منه ، ويندون به ويلعنونه ، ويكشفون عوراته ، ويظهرون سوآته . حتى لكأنه الوحش الذى اجتمعت عليه ألوف السيوف والحراب تطعنه من كل جانب . ثم جاءت هذه المنظمة الدولية فدمغته المرة بعد المرة .. أربع وستون دولة تصدر عليه حكمها ، ثم ٦٥ دولة .. ظهر إذن أن الاستعمار فى جانب والعالم كله فى جانب . ظهر أن الاستعمار غريب فى عزلة موحشة وفى وحشة قاتلة ، لا بين الأمم وحدها، بل بين الأمة التى يعيش فيها ، والتى خرج منها .

لم يعد الاستعمار قادرا على أن يقول : « إنه رأى إسرائيل تتقدم إلى مصر ، فضرب مصر ، وأرسل طائراته الفرنسية تحارب مع إسرائيل » فقد ضحك الناس جميعا منه، وتوالى عليه الضرب والركل والطعن .

ظهر أن الأمم المتحدة ـ التى شارك فيها الاستعمار ، لتكون عصا يضرب بها الأمم الصغيرة ، ويؤخر عن طريقها تقدم الشعوب وتطورها ـ هى منظمة حية ،إذا ما استندت إلى الشعوب ،وسارت معها

فى طريقها ، وأنها تفقد وجودها وقيمتها إذا هى سارت فى ظل الدول ذات الأطماع .

إذا قلنا : إن مصر لا تحارب لنفسها ، وإنما تحارب لكل ذى حق ، وتحارب من أجل مستقبل أفضل وأسعد ، ومن أجل حياة أشرف وأسمى ، إذا قلنا ذلك فإن الواقع يؤيده ، والتاريخ يثبته ، وحقائق الحياة تؤكده ، فلم تضع إذن هذه الدماء الغالية التى بذلها إخواننا فى بور سعيد . ولم تذهب سدى هذه الأرواح التى فاضت رخيصة على أرض المعركة .. إنها سطور كتاب الحرية لكل إنسان يعرف لإنسانيته قدرها ، ويؤمن بها ، وبمستقبل الناس العظيم .

الإيمان يصنع المعجزات

— ١ —

قرأت لمراسل وكالة أنباء أمريكية يقيم فى القاهرة ما يلى : ــ

« إن الهدوء الذى يسود القاهرة ومتانة أعصاب الشعب المصرى أمران لا يتمالك المرء معهما إلا أن يبدى إعجابا شديدا . ثم قال : إنه على الرغم من ترحيل الأجانب فالشعب فى القاهرة ثابت مصمم على الدفاع عن وطنه ببسالة ، ولا تفت جميع الغارات الوحشية الاستعمارية فى عضده ، ولا حتى فى متانة أعصابه » ، ويمضى المراسل قائلا : « إن الجماهير فى القاهرة تستقبل الغارات الجوية بكل هدوء » وقد استمع المراسل إلى الهتافات تتعالى من الحناجر عندما أسقطت المدفعية المصرية إحدى الطائرات المغيرة . وما يقوله هذا المراسل يقوله عشرات غيره قد لا يقولون هذا القول بهذه الصراحة ، وقد يكتبون هذه الشهادة ولكن آذان العالم بأسره تسمع هذا القول المكتوم والمعلن وتتأثر به ، وتعلن أو تضمر هذا الإعجاب الذى عبر عنه هذا المراسل الأمريكى .

وأنا أريد أن أقول : إن ثباتنا أمام هذه الغارات وإن متانة أعصابنا وإن ارتفاع روحنا المعنوية هو رأس مال كبير لنا فى هـذه المعركة الشريفة التى نذود فيهـا عن أوطاننا ، وندفع العدوان عن أغلى ما يملـكه المرء وهو الشرف والمبدأ الذى يهب له نفسه وحيـاته وما يملك .

إنهم يريدون أن يضعفونا ، يريدون كما قلت من قبل أن يشتتوا قوانا ، يريدون أن يقلموا أظفار حركاتنا الوطنيـة العربيـة التى شملت العالم من المحيط الأطلسى إلى الخليج العربى ، ولـكن هيهات لهم أن ينجحوا فى شىء ممـا ائتمروا عليـه ، وجمعوا جموعهم من أجـله .

فإن القومة العربيـة وإن الوطنية المصرية هى من روح الله لا يمـكن أن تنطفئ ، ولا أن تغلب ، ولا يمـكن أن ترد على أعقابها . لا يمـكن أن نهزم ؛ لأننا على حق ، ولأننا صابرناهم ، وسـكتنا على عدوانهم ، ومددنا يد الصفح والمسالمة سنـة بعد سنة ، ولـكنهم أبوا إلا أن يعتدوا علينا ، أبوا إلا أن يخلقوا المناسبات ، وأن يفتروا علينا افتراء شديدا ، والله لا يُغلب أبدا ولا يُغلب المؤمنون ولا يُغلب الذين يدافعون عن الحق .

ولنعلم جميعا أن الحق لا يضيعه إلا صاحبه ، أما إذا دافع صاحب الحق عنه ، و إذا استبسل و إذا ثبت و إذا نزع من قلبه الخوف وأحل محل الخوف الاطمئنان بالله فإنه منتصر ، ولا يمكن مطلقا إلا أن يكون منتصرا . هكذا علمنا ديننا ، هكذا علمنا تاريخنا ، هكذا علمتنا تقاليدنا . ففي تاريخنا المجيد صفحات كبيرة مشرقة بالنور ، تعلم الإنسانية جمعاء أن حفنة من المؤمنين كانوا مضيّعين فى أعطاف الجزيرة العربية ونواحيها استطاعوا أن يدعوا العالم كله إلى إيمان جديد ، وعلموا الناس أن يعيشوا سواسية كأسنان المشط . وأن يعيشوا متحابين متآخين . فقد وقفت أمامهم جحافل العدوان لإمبراطورية شاسعة واسعة فسيحة الأرجاء معتزة بالقوة والسلاح ، فماذا حدث فى امبراطورية القوة : قوة السلاح وقوة الحديد والنار وقوة المال وقوة الطغيان ؟ . استطاعت هذه الحفنة المؤمنة أن تغلب هذه الجحافل الطاغية المعتدية .

ولقد انتشر أجدادنا من هذه الجزيرة و بشروا بالخير و بشروا بالسلام و بشروا بالمحبة ، فساد فى هذه الرقعة العزيزة عليكم وعلى كل مؤمن بالإنسانية ـ سادها سلام وقامت فيها حضارة ، وأحب الناس فى ظلها بعضهم بعضا ، وجاء إلى هذه المنطقة كل من يريد أن يعمل

للخير وللإنسانية فوجد منا ترحابا ، ووجد منا معاونة ومساعدة ، وسيعيد التاريخ نفسه ، وستفتح لكم أبواب التاريخ ميادين الشرف من جديد ، وستدعوكم هذه الأيام العزيزة فى تاريخكم وفى تاريخ الإنسانية جمعاء ، تدعوكم إلى صنوف من الشرف جديدة ، ولن تتخلوا عن تقاليدكم ، ولن تتأخروا عن رفع علمكم الذى ارتفع فوق الرءوس مرفرفا عاليا .

إننا يجب أن نصبر ، ويجب أن نثبت ؛ لأن العالم لا يقف إلى جانب الضعفاء ، وقد أثبتنا فى هذه الأيام أننا أقوياء . مزيد من القوة ومزيد من الصبر ومزيد من الثبات ومزيد من الثقة فى المستقبل ومزيد من الثقة فى الله ، مزيد من هذا كله هو الذى نطلبه اليوم لكى تروا أن العالم الذى قد يكون متردداً بعض الشىء سيأتى كله إلى صفوفكم ، وسيمد يده إليكم ، وسترون قريبا هذه المعركة التى انتظرتم وانتظر أجدادكم فترة طويلة فى التاريخ حتى يدور رحاها ، وستدور رحاها على الباغين .

ولنعلم أنه لا يُطلب منا إلا ما نطلبه نحن من أنفسنا ، الثبات على هذا الإيمان الذى يلمع فى أعيننا والذى يُرى فى كل حركة من حركاتنا ، هذا الإيمان هو الذى سينزع من كل مكابر ومن كل معاند معاونته

ومساعدته المادية بعد أن اجتمعت الأمم أكثر من مرة على تأييد موقفنا الشريف . هـذه القرارات التى نسمعها ليست إلا طليعة الفوز الذى لاحت تباشيره فى السماء وغدا ــ وهو غير بعيد ــ سنرى أن الله قد أثابنا على ثباتنا وأثابنا على إيماننا وكتب لنا الفوز وكتب لنا النصر .

— ٢ —

لنهنىء أنفسنا بوقفتنا الرائعة المجيدة الخليقة بنا الشبيهة بأمجادنا العريقة ــ هـذه الأمجاد التى ورثناها عن أجدادنا الذين علموا الناس الإيمان وبذروا فى قلوبهم الصبر ونشروا النور بين ربوع الإنسانيـة جمعـاء .

لقد اصطلحت علينا قوى الشر ، حاولت أن تفت فى عضدنا : حاولت أن تقـذف الرعب فى قلوبنا : حاولت أن تفرق صفوفنا : حاولت أن تشتت جموعنا : حاولت أن تنكس أعلامنا ، حاولت فى ذلك محاولة المستيئس القانط من رحمة الله المعتمد على القوة والحديد . ظنت هـذه القوى ــ قوى الشر ــ أن ما سلطته علينا خلال أربعـة وسبعين عاما من الاحتلال الذى اعتمد على عبودية جماعة باعت نفسها

للشيطان ، ووضعت كل ما تملك فى خدمة الذين يكرهون هذه الأمة ، ويريدون لنا الضعف والخنوع والذل . ظنت قوى الشر أن أربعة وسبعين عاما استطاعت أن تطوى صفحتنا ، وأن تَفُل من سلاح إيماننا وأن تجعلنا كالعجينة يمكن أن تُشكل فى يد الباغين والعادين ، ولكننا منذ بدأت هذه الأزمة التى افتعلها الاستعمار ونحن هادئون ثابتون ، لا ترتسم على شفاهنا إلا بسمة الإيمان والصبر : الإيمان بالله والإيمان بالوطن والإيمان بالمستقبل . لوّحوا لنا أول الأمر بأساطيل تخرج من موانيها وقواعدها إلى شرق البحر الأبيض المتوسط ، وأعلنوا على غير عادة العسكريين عن هذه الحركة ، ووصفوها ، وبينوا قواها وعددها وكانوا يأملون من وراء ذلك أن يُحدثَ فى معنوياتنا انهيارا وأن يَدب فى قلوبنا فزع ، فماذا حدث ؟ . حدث أن وقفنا وراء رئيسنا الذى بايعناه ، والذى عاهدنا على أن يقف فى مقدمة الصفوف لا يتأخر خطوة باذلا حياته ودمه وروحه وحياة الذين يحبونه ويحبهم ، لا يفكر أبداً فى أن يستسلم ، ولا أن ينكس علمنا الذى ارتفع فوق الهامات .

لم تنجح المؤامرة الأولى : مؤامرة التهديد بالقوة ، ومع ذلك فقد علم المصريون أن الأسطولين الانجليزى والفرنساوى وصلا إلى مايقرب من

ثلاثين أو عشرين ميلا من ميناء الاسكندرية ، ومرت هذه العاصفة الجوفاء علينا لا تحرك فى نفوسنا إلا مزيدا من الإيمان ومزيدا من التعلق بالأهداف الرفيعة التى أعلنتها ، منذ كانت ، مصر ، منذ ولدت هذه الأمة الصابرة المؤمنة التى لا تعرف عدوانا ولا تعرف طغيانا ولا تعرف استعلاء ، الأمة المتواضعة المحبة لكل ماهو خير للإنسانية ، الأمة التى احتمى بها السيد المسيح ، والأمة التى ازدهر على شواطئها نور الإسلام الذى عم بخيره وفضله الملايين ممن كانوا يستعبدون . و إنى أعلم فيما أعلم أن الله قد خلق الناس أحرارا وأن المعتزين بالقوة هم وحدهم الذين يريدون أن يحيلوهم إلى عبيد ، ثم بعد ذلك توالت المؤتمرات وتتابعت المؤامرات ، ونشروا علينا بين الحين والحين قرارات جمعيات تؤلف ، تريد أن تسلبنا حقنا الشرعى من رسوم المراكب والبواخر التى تمر فى القناة ، أرادوا أن يفرضوا علينا استعمارا مشتركا بين جماعة عاشت حياتها على أقوات الفقراء وعلى أرزاقهم ليزدادوا هم تخمة وليزداد الفقراء والحفاة والمستضعفون فقرا ومرضا وضعفا ، لقد هززنا أكتافنا ولم نحفل بهذه المؤامرة ولم نكترث بهذه القرارات ، و بقيت القاهرة ، بل بقيت الجمهورية المصرية جمعاء هادئة ساكنة ، حتى إن الذين جاءوا يعلنون قرارات مؤتمر لندن — وعلى رأسهم رئيس وزراء استراليا — أخذتهم الدهشة من كل جانب ، فقد

كانوا يظنون أنهم سينزلون بأرض وطن هائج مائج فائر ثائر ، ولكنهم وجدوا الجميع منصرفين إلى أعمالهم يؤدون واجباتهم لا يقيمون وزنا لما يقال من إرجاف وتهديد و إرهاب ، ذلك لأن سكينة الله نزلت على قلوبهم فزادت من رباطة جأشهم وعلمتهم أن يدخروا كل قواهم للمعركة التي يعلمون أن خصوم أوطانهم يدبرونها ليوم من الأيام، وعندما تدور رحى هذه المعركة سينقلب هذا الهدوء إلى حماسة ، وسينقلب هذا الصبر إلى اندفاع و إلى مقاتلة و إلى كل ما يرهب هؤلاء الذين أرادوا أن يرهبونا وأن يوهمونا بأن الأمم اجتمعت علينا ، والواقع أن الأمم اجتمعت لنا .

أيها الشعب المجيد . أيها الشعب المؤمن . أيها الشعب الرفيع العالى لا أهنئك أنا وحدى و إنما تهنئك الأمم المحبة للسلام ولا أدل على صحة هذا القول من هذا القرار الذى أصدرته أربع وستون دولة لا تمت لنا إلا بما تمت به الأمم بعضها إلى بعض ، استنكرت أربع وستون دولة هذا العدوان الغادر على أرضنا ، وهذه المؤامرة المفضوحة التى ظنوها محبوكة ، مؤامرة تحدى إسرائيل ودفعها كأنما هى رأس الحربة يدس فى قلوبنا وصدورنا ، ثم يأتون من وراء إسرائيل ليعلنوا أن الملاحة

بالقناة تعطلت ، وأن قوة إسرائيل أصبحت على مسافة لا تزيد عن عشرة أميال أو تسعة أميال من القناة ، لقد سخرنا من هذه المؤامرة المفضوحة التي لا نستطيع إلا أن نسميها مأساة أو ملهاة ؛ لأنهم لو كانوا صادقين فيما يدعونه من أن ملاحة القناة هى التى تشغل بالهم ، وتؤرقهم فى الليل وفى النهار لـكان الواجب أن يقع العقاب وأن ينزل المصاب على رأس الذين خرجوا من حدودهم ، ووصلوا كما يزعمون إلى القناة عند هذه الدرجة التى يصفونها و يؤكدونها ، ولـكن الذى حدث هو العكس ، فالذين يزعمون أن دورهم اقتحمت عليهم والذين يزعمون أنهم غزوا فى بيوتهم هم الذين يُعاقبون وهم الذين تُسلط عليهم هـذه الحمم والنيران من كتلة العالم الحر : العالم الذى يزعم أنه يعلِّم الإنسانية الحضارة والمحبة والتعاون والإخاء والمساواة ، ولـكن هذه المؤامرة عرفناها وتـكبدنا منها الـكثير : عرفناها فى سنة ٨٢ حينما اجتمع الأسطولان البريطانى والفرنسى أيضا ـ البريطانى والفرنسى دائما ـ اجتمعت هذه الأساطيل فى ميناء الاسكندرية تاركة قواعدها فى انجلترا وتاركة قواعدها فى فرنسا ، وخرجت من غرب البحر الأبيض المتوسط ومن المحيط الأطلنطى وجاءت إلى الأسكندرية ، فماذا قالت ؟ قالت كلاما يجعلنا نقول ما أشبه الليلة بالبارحة ! اجتمعت هذه الأساطيل : هذه البوارج

الضخمة ووقفت أمام طوابى الاسكندرية القديمة التى لم تمتد لها يد الإصلاح منذ ٤٠ أو ٥٠ سنة خلت قبل يوليو سنة ١٨٨٢ ، وزعمت أو وزعم الذئب أن الحمل يعكر عليه الماء : زعم الإنجليز وزعم الفرنسيون الذين يوزعون على العالم الحضارة والديموقراطية ـ زعموا أن الإصلاح يجرى فى طوابى ميناء الاسكندرية وأنهم لذلك مضطرون أن يضربوا هذه القواعد ، لأنها تهددهم . عجيب والله العظيم ! وأعجب منه أن يكون المهدِّد هو الذى يأتى إلى مياه المهدَّد ويقف فيها ويصوِّب عليه مدافعه !! . عجيب أن يحدث ذلك ! . ولكن الاستعمار حينما يريد لا يجد الحيلة التى تغطى نفاقه وكذبه وادعاءه ، ولذلك سلط علينا هذه المدافع فى سنة ٨٢ ـ والآن بعد أربعة وسبعين عاما، والآن بعد أن قيل ما قيل فى الكتب وعلى المنابر العالمية وفى المنظمات الدولية من التعاون بين الأمم ، ومن فض المشكلات بالمفاوضة والتفاهم ، وبعد ما تحررت الشعوب ، وبعد أن قامت هذه الأمم التى كانت مستعبدة ورفعت رءوسها ،وردت الاستعمارعن أراضيها ، بعد هذا كله يظنون أنهم قادرون على أن يؤخروا عقارب الساعة ظانين أنهم حينما يلوِّحون لنا بالقوة وحينما يشرعون سيوفهم ، ويخرجونها من أغمادها ستصطك مفاصلنا وسترتعد أعضاؤنا وستنهار ، ولكننا أثبتنا لهم أننا أحفاد مؤمنون كأجدادنا الذين آمنوا بالله والذين لا يخافون أحدا إلا الله .

ذلك لأننا نعرف هـذه الآية الـكريمة : (قُل إنْ كانَ آباؤُكم وأَبناؤُكم و إِخوانكم وَأَزواجُكم وعشيرُتكم ، وأَموَالٌ اقترفتُمُوها وتجارةٌ تخشون كسادَهَا ، ومسا كنُ ترضونَهَا ، أحبَّ إليكم منَ اللهِ ورَسولهِ وجهادٍ فى سبيلهِ ، فتربَّصُوا حتى يأتىَ اللهُ بأمرهِ واللهُ لا يهدِى القومَ الفاسقينَ[1]) . ونعرف أيضا قوله تعالى : (قُلْ لن يُصيبنَا إلَّا ما كَتبَ اللهُ لنَا هوَ مَوْلانَا وعَلَى اللهِ فليتوكَّلِ المؤمنونَ[2]) . نحن قوم مؤمنون لا نخاف لأنه لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا ، ونحن قوم مؤمنون نعلم أن الآباء والأبناء والإخوان والأزواج والعشيرة والأموال وعرض الدنيا الزائل كله فانٍ ، وأن الشىء الذى يمهد الطريق إلى الحياة العزيزة فى الدنيا و إلى الحياة التى وعد الله بها المتقين فى الآخرة ، إنما هى الجهاد فى سبيل الله ، وأما الذين ينكصون على أعقابهم ، والذين يخافون على أعمارهم وأموالهم فإن مأواهم جهنم وساءت مصيرا . نحن مؤمنون وسننتصر ؛ ذلك لأن الله وعدنا بالنصر وقال لنا : (يَأَيها النبىُّ حَرِّضِ المؤْمنينَ عَلَى القتالِ إِن يكنْ منكمْ عشرونَ صابرونَ يغلبوا مِائَتيْنِ ، و إِن يكن منكم مائة يغلبوا أَلفاً[3]) هـذا هو الدستور الذى نتشبث به ، ونعض عليه بالنواجذ : الدستور الذى يقول لنا : ليست العبرة بالقوة المادية و إنما العبرة بالإيمان .

---

(١) سورة التوبة (٢) سورة التوبة (٣) سورة الأنفال

الانسحاب الذليل

حرصت أدوات الدعاية البريطانية على أن تُقنع الناس بشيء واحد : هو أنهـا إذا قبلت سحب قواتها المعتدية من بور سعيد فإنها لم تفعل ذلك خوفا من التهديد الروسي ، بل إنها قبلت سحب تلك القوات نزولا على حكم الجمعية العمومية للأمم المتحدة . . يكرر هذا القول أو على الأصح كرره المتحدثون الرسميون وأعادوا فيـه القول ، ورددته الإذاعة البريطانية ، ونشرته الصحف البريطانية .

والذين سمعوا كلام إيدن وحكومته كانوا يتمنّون أن يستطيعوا تصديقه ، كانوا يتمنون أن تـكون الدول التي كانت كبيرة قد هيأت نفسها للعيش في ظل الأنظمة الجديدة التي تمخض عنهـا الـكفاح الإنساني ؛ إذ أن كل إنسان عاقل في هـذه الدنيا يعرف اليوم أنه في حاجة إلى حمايةٍ دائمة مستقرة ، لا تتأثر بتقلبات السياسة ، ولا بأهواء الدول : حمايةٍ مستندة إلى مبادئ ثابتة ، تطبق في كل ظرف ، وعلى كل طرف من أطراف المنازعات الدولية ، سواء أكان قويا أم ضعيفا ، غنيا أم فقيرا ، عدوا أم صديقا ، قريبا أم بعيدا . والعقلاء في العالم –

الذين يحسون بحاجتهم إلى هذه الحماية ـ يزداد شعورهم بهـذه الحاجة كلما تقدم العلم فى إنتاج أسلحته التى أصبحت الآن قادرة على تحقيق القتل الجماعى ، والتخريب الشامل للمدن والدول . فقد كانت الحرب فى الماضى حرفة يمتهنها أفراد قلائل من الأمة ، فإذا قامت الحرب ذهبوا ومعهم سلاحهم وعتادهم إلى حدود الدولة ، أو إلى ساحات الحروب ، وكأنهم فريق من الفرق الرياضية يقوم برحلة لينـازل فريقا آخر ، ويعيش بقية أبناء الأمة فى مدنهم آمنين مطمئنين ، إلا أن يكون لهم فى الجيش ابن أو صهر ، فينفردون وحدهم بالقلق عليه والخوف على مصيره . لذلك كان رؤساء الدول وساستهـا لا يترددون فى الماضى فى إعلان الحروب ، ولم تـكن الشعوب لتحفل كثيرا بهذا الإعلان ، لأن خسائرها فيه محدودة . أما اليوم فقد أصبحت الحروب همًّا شاغلا لـكل إنسان ، فهى تطارد بخسائرها الفادحة ومصائبها الباهظة الأطفال قبل ما تطارد الشيوخ ، وهى تتعقب القانتين المنقطعين للعبادة فى بيوتهم ومعابدهم ، كما تتسرب إلى العلماء المنصرفين للبحث الخالص فى معاملهم وأمام مخابرهم . أما رؤساء الدول فهى لا تزال وراءهم حتى تدخل إليهم فى عقور مخابئهم المبنية من الحديد والصخر ، فإن لم تقتلهم قتلوا أنفسهم بأيديهم .

فالحرب اليوم ليست مباراة رياضية ، وليست خطرا محدود المهالك والخسائر ، إنما هى نقمة تصيب الدنيا كافة ؛ لذلك لا ينقذ الأمم منها إلا أن تكون هناك عدالة نزيهة محايدة ، لا تمالئ ولا تصانع ، جريئة لا ترائى ولا تجامل ، ولن نجد عدالة من هذا الطراز إلا إذا استندت إلى ضمير الناس المجرد من الأهواء والأغراض والأطماع ، وإلا إذا تجسد هذا الضمير فى نظام دائم ثابت مستقر قادر على أن يقضى ، وأن ينفذ مايقضى به . والعقلاء من بنى البشر يعلمون أن كل شىء فى دنيا السياسة يتغير ويتقلب ويزول ، ويحل محله جديد . فقد كان فى روسيا مثلا منذ أقل من أربعين سنة حكومة قيصرية بلغت أقصى الغاية فى الرجعية والفساد ، فحلت محلها حكومة اشتراكية ، كانت فى نظر خصومها وأعدائها المثل الأعلى فى التطرف والذهاب فى أساليب الحكم ومبادئ الاقتصاد إلى النقيض . وقد كانت فى أوروبا امبراطورية شامخة واسعة شاسعة هى امبراطورية النمسا والمجر ، وقد ضمت فيما ضمت من العناصر: الجرمان والمجر والصرب والكروات ، والتشيك والسلوفاك ، فلما وضعت الحرب العالمية الأولى أوزارها فى سنة ١٩١٨ ، تفرقت هذه الامبراطورية وتبعثرت أجزاؤها ، وأصبحت عاصمة النمسا أضخم من الدولة نفسها ، حتى قيل : إن ڤينا رأس ثقيل على جسم هزيل لا يقوى على حملها .

وكانت فى الشرق الإسلامى الدولة العثمانية التى شمل سلطانها شرق أوروبا ثم الشرق العربى ، ثم شمال أفريقيا ، فما زال ينحسر ويتقلص ويصيبه الجزر والانكماش ، حتى انطوت على نفسها فى الأناضول ، مع بقعة صغيرة فى أوروبا هى استانبول . ولسنا نحب أن نكثر من ضرب الأمثلة حتى لا يضيق الناس بها ، لأنهم يعرفونها . فلا بد إذاً من أن يستند السلام إلى قوة دائمة لا تتغير كما تتغير الأوضاع الدولية والحدود بين الحكومات ومبادئ السياسة والاقتصاد ؛ لذلك كانت دعوة مصر تستند أول ما تستند إلى العدالة الدولية ، فلما غام الجوُّ وأنذر بالبروق والرعود لجأت إلى الأمم المتحدة ، بل إنها بعد التأميم دعت إلى مؤتمر يضم كل المنتفعين بقناة السويس ، ولا يقتصر فقط على الطبقة الاستقراطية من الدول التى عاشت تأكل أنفس الأطعمة بملاعق من ذهب على صحون من أندر المعادن . ولما رُفض هذا ، واشتد التهديد ، وتوالت من الأعداء عمليات تعبئة الجيوش والأساطيل ، أخطرت مجلس الأمن بشأن هذه التدبيرات المهددة للسلام الأمين .

ولما يئس ثالوث العدوان الخارجُ على حظيرة الجماعة الإنسانية الذى يعبد الذهب ويؤمن بالحديد والنار : ثالوث بريطانيا وفرنسا وإسرائيل . . لما يئس هذا الثالوث من أن يقذف فى قلوبنا الرعب ،

وأن يزلزل ثباتنا ، طبق المذهب العامى المعروف : « ضربنى و بكى ، وسبقنى واشتكى » ، وادعى أمام مجلس الأمن أن مصر اعتدت عليه .. فعرضت مصر قضيتها برمّتها على محكمة العدل الدولية ..

فمصر منذ البداية لاتؤمن بالعدالة الدولية فحسب ، بل هى تدعو إلى دعم تلك العدالة وتثبيت قواعدها ، وحياطتها بأسباب المنعة ، ورد عدوان العادين عليها . ولا يتصور من مصر غير ذلك ؛ لأن قضيتها هى أولى القضايا التى ظفرت بتأييد الأمم والشعوب ، بل بتأييد الدول والحكومات ، بل بما لم تظفر به قضية فى تاريخ العالم منذ كانت الدول تتحارب وتتحالف ..

قبيل القرن العشرين لم يكن المجتمع الدولى موجودا بصورته الحالية ، ومنذ ولد المجتمع الدولى الحديث لايذكر المؤرخون أن قضية من قضايا الدول ظفرت بتأييد الناس والشعوب ، والمسئولين من رجال الحكم والسياسة ، والمفكرين من الكتاب والفنانين والشعراء ، وإذا راجعنا ذلك التاريخ الطويل ، لم نر قضية دولية دعيت لها القلوب ، إلا قضية تقسيم بولندا بين روسيا القيصرية و بروسيا والنمسا ، فقد سمى هذا التقسيم بجريمة القرن الثامن عشر ، ومع ذلك فإنهذه الجريمة لم تستثر من الاهتمام والجزع الإنسانى مثلما أثارت قضية العدوان الأحمق الطائش

الذى وقع على مصر بأسرها ، وعلى بور سعيد الشهيدة بصفـة خاصة . فمصر بسبب دينها للرأى العام العالمى ، وبفضل ما أظهره هـذا الرأى العالمى ـ مع كونه مولودا صغيرا لم يشب عن الطوق ـ من نشاط وحيوية ومن تنبه ويقظة ـ ترى أن مبادئها التى تبشر بها ، وتدعو إليها ، منذ مؤتمر باندونج هى تعزيز العدالة الدولية .

فإذا كان مستر إيدن وحكومتـه ، والمتحدثون باسمه ، وإذاعته وصحفه ، يريد أن ينفى عن نفسه تهمة الخوف من التهديد الروسى ، وأن يسجل أنه لا يزال ولا تزال امبراطوريتـه قادرة على مواجهة المخاطر ، وأنها تقيم للمبادئ الإنسانية فى ذاتها وزنا ، فعليه أن يراجع أقواله وأعماله منذ بدأت أزمة القناة ليعرف أن الناس لا تستطيع أن تصدق ذلك ، ولا أن تطمئن إليه . فقد دأب خصومه من أهل بلدته ، وأبناء جلدته من العمال والأحرار على أن يطلبوا منـه ، ثم على أن يتوسلوا إليـه أن يجنب بلده المخاطر ، وأن يلجأ إلى الأمم المتحدة ، وقد أبى واستكبر وأصر على أن يستعمل القوة وأن يفرض على الناس حكمها ، ولما ضيق عليه الخناق وعد بأن يلجأ إلى الأمم المتحدة ، ولـكنه رفض أن يعد بأن يلتزم حكمها ، وأن ينزل على مقتضى رأيها . ولما رأى انفضاض الرأى العام الدولى عنه ، وسوء حكم الناس عليـه ، لجأ إلى

مجلس الأمن ، ولم يكد يصدر حكم المجلس ، حتى وقف يعلن فى غير حياء ولا احتياط أن التفكير من جانبه فى استعمال القوة لم ينته بعد ، وأن بريطانيا تعتقد أن القوة هى آخر الحلول فى الأزمات . وقد أنفذ فعلا ما صح عليه عزمه ، فأرسل أقبح وثيقة من وثائق الحياة الدولية ، أرسل فى آخر اكتوبر إلى مصر يقول : إنه يستأذنها فى أن يحتلها ، أى يلتمس منها السماح فى أن يعتدى على عرضها وأرضها . وقبل أن يجف مداد هذا الإنذار ، أطلق طائراته ، تضرب الآمنين الوادعين فى بيوتهم بالقاهرة والإسكندرية ورشيد و بلبيس وأبى حماد وأبى زعبل، ولا تعفى مسجدا ولا كنيسة ولا مستشفى ، ولا طفلا ولا شيخا ولا امرأة ولا حيوانا ، ثم توج هذا كله بهذه الجريمة التى لا نحب أن نصفها : جريمة هدم أحياء من بور سعيد ؛ ذلك كله لأن إسرائيل قد هاجمتنا نحن ، فاستحققنا فى شرعة السيد إيدن هذا العقاب .

بعد ذلك كله رأى إيدن وحكومته أنه فى حاجة لأن يؤكد ويقسم أنه انسحب لا خوفا ولا جزعا ، وأن إمبراطوريته فعلت ذلك حبا فى الأمم المتحدة ، واحتراما لها .. فهل يصدق نفسه ؟ وهل يصدقه الشيطان نفسه ؟ أظن لا .

مؤامرة مبيّتة

قالت الأو بزرفر فى عددها الصادر فى ١١ من نوفمبر سنة ١٩٥٦ :
تدل التحريات فى العواصم المعنية بالأمر على أن التهمة الخاصة بالتآمر الانجلو ـ فرنسى مع إسرائيل تؤيدها أدلة سابقة ، وما يتلو ذلك ليس حكم مؤرخ ، ولـكنه حكم قائم على الأدلة التى بين أيدينا فى الوقت الحاضر .

ومضت الجريدة تقول : إن ما لديها من بيانات تقطع بأن رئيس وزراء فرنسا ووزير خارجيتها باحا أثناء الاجتماع الذى عقداه فى باريس فى السادس عشر من اكتوبر إلى سير أنطونى إيدن ومستر سلوين لويد خطةً للتدخل كانا قد رسماها مع إسرائيل . ثم قالت : إن الألفة المطّردة بين حكومتى فرنسا وإسرائيل استمرت فى ازديادها وتوثقها شهورا ، قبل أن تظهر أزمة قناة السويس فى آخر يوليه . على أنه فى أواخر أغسطس لوحظ فى لندن وواشنجتن أن الحكومة الفرنسية لم تعد تمدها بمعلومات عن شحنات الأسلحة التى تصدرها إلى إسرائيل .

وبعد ٣٠ من أغسطس اقتنعت المخابرات الأمريكية بأن فرنسا تمد إسرائيل بالأسلحة دون أى تحفظ . وأبلغ مراسل التيمز فى تل أبيب أنه لم يمض وقت طويل على عودة السفير الفرنسى إلى إسرائيل من عطلته الصيفيـة فى فرنسا حتى خطب رئيس وزراء إسرائيل بن جوريون فى جمهور من أعضاء المجلس العـام لحزبه قائلا : إن إسرائيل لن تلبث أن يكون فى إمكانها الاعتماد على حليفة صادقة ، ولم يشك أحد فى أن رئيس الوزراء قد عنى فرنسا . واعتقد أنه فى سبتمبر عرضت إسرائيل على فرنسا فكرة شن هجوم مشترك على مصر . وتقول مصادر واشنجتن وباريس : إنه خلال اجتماع مجلس الأمن فى نيويورك من ١٣ إلى ١٥ من اكتوبر وافقت فرنسا على تلك الفـكرة مشترطة اشتراك بريطانيا فيها .

وتقول الجريدة البريطانية : إن مستر سلوين لويد بعد عودته من نيويورك فى السادس عشر من اكتوبر حضر اجتماعا قصيرا لمجلس الوزراء البريطانى ، وحضر هذا الاجتماع أيضا رئيس هيئة أركان حرب الامبراطورية ، ثم سافر إلى باريس برفقة رئيس الوزراء ، ولعل ما حدث بالضبط فى ذلك الاجتماع لم يعرف قط ؛ ذلك لأن الوزراء

الأربعة أخرجوا جميع مستشاريهم من غرفة الاجتماع ، والنتيجة التى توصلت إليها الولايات المتحدة أن الاتفاق بين موليه و بينو من جهة ، و إيدن وسلوين لويد من جهة أخرى قد تم فى هذا الاجتماع على الهجوم على مصر بالاشتراك مع إسرائيل ، ومنذ ذلك الوقت لم يصبح واضحا للمراقبين فى أمريكا وحدها أن شيئا غير عادى يجرى العمل فيه على قدم وساق ، بل قد دهش كبار الموظفين البريطانيين وصغار الوزراء فى كلتا الحكومتين حينما اكتشفوا أنهم أبعدوا من قوائم توزيع محاضر الاجتماعات والمذكرات السياسية .

واستنادا إلى معلومات وثيقة بدأت القوات الفرنسية تتجمع فى منطقة مرسيليا ـ طولون بعد ١٦ من اكتوبر ويقال : إنها ذاهبة إلى ما وراء البحار ، وطليت عرباتها بطلاء حرب الصحراء . كما غادرت قاذفات القنابل النفاثة البريطانية « تاليانت » قواعدها إلى مالطة ؛ لأنها اشتركت فى الهجوم على مصر بمجرد انتهاء الإنذار البريطانى الفرنسى. وفى ٢٦ من اكتوبر وصل باريس عدد كبير من كبار ضباط إسرائيل . وا كتشفت المخابرات الأمريكية ارتفاعا ملحوظا فى مستوى البرقيات الرسمية والرسائل اللاسلكية بين باريس وتل أبيب ولندن.

انتهى كلام الجريدة ، ولم يبق إلا أن نقول : إن هؤلاء

المتآمرين الثلاثة هم الذين يشترطون لجلاء قواتهم المعتدية قيام قوة بوليس دولية ذات كفاية ، فما أشبه كلامهم بكلام اللص الذى يضبط وهو يسرق فى دار ، فيأبى أن يخرج منها إلا إذا ساقه إلى السجن ضابط كبير من رجال البوليس ذوى الكفاءة .

وشهد شاهد ... بل شهود

تنسحب الآن من أرضنا القوات البريطانية الفرنسية ، ولن ينقضى وقت طويل حتى تجلو عن آخرها ، فيتم جلاء استحققناه بأشرف جهاد عرفته الشعوب على مر الأيام والحقب .

فما هو الحساب الختامى لعملية العدوان التى وقعت على مصر من الثالوث الذى يعد من أقدم الدول احترافا للعدوان على أمن الشعوب ، وأرزاقها ؟ . لا نود نحن أن نحدد نتائج هذا الحساب الختامى ، وندعُ الكلام لكبريات الصحف فى الغرب .

تقول جريدة النيويورك تايمز الأمريكيـة ، وهى موالية لإسرائيل ، ما نصه :

« إن المغامرة التى قامت بها بريطانيا وفرنسا كان مآلها الفشل الذريع . لقـد اضطرتا لسحب تأييدهما على حين غرة لإسرائيل ، فأصبحت فى عزلة أكثر إيحاشا عن ذى قبل ، كما أنهما عرضتا سمعتهما وعلاقتهما الخارجية للامتهان . فى حين ظل عبد الناصر عدوهما اللدود

فى منصة الحكم . وستزداد قوته ونفوذه فى الشرق الأوسط عما كان ، على حين اضمحل نفوذهما فى هذه المنطقة وتقلص . وختمت الجريدة كلامها بقولها : إن مقامرة السويس قد انتهت بالإفلاس ، و بتراجع الإسرائيليين بعد أن أثاروا عليهم عداوة موسكو وسخط وشنطن . إن هذه النهاية المخزية كان ممكن أن تنقلب لصالح بريطانيا وفرنسا لو تكللت الحملة الإنجليزية الفرنسية بالنجاح السريع ؛ إذ ليس أنجح من النجاح ، وليس أفشل من الفشل » .

وعادت نفس الجريدة ـ أى النيويورك تايمز ـ تقول فى مقال آخر :

« إن بريطانيا وفرنسا ، على مايلوح ، قد عدلتا الآن عن فكرة استخدام قوة الأمم المتحدة البوليسية لإنقاذ مايمكن إنقاذه من مغامرتهما الفاشلة فى مصر ، وكانتا تحاولان إرجاء هذا الإنسحاب إلى أن تتلقيا تأكيدات عن مهمة هذه القوة البوليسية ، ولكن ضغط أمريكا عليهما كان قويا » .

وتقول الديلى نيوز الأمريكية أيضاً :

« لقد خاضت حليفتانا العزيزتان : بريطانيا وفرنسا غمار الحرب الإسرائيلية المصرية (إن لم تكونا سبب إشعالها) دون أن تخطرا حكومة

واشنطن بذلك سلفا . وكان دخولها هذه الحرب على أملٍ إسقاط الرئيس عبد الناصر ، واستعادة قناة السويس على جناح السرعة ، فذهب هذا الأمل أدراج الرياح ، فقد ظل عبد الناصر محتفظا بمكانته العظيمة فى نفوس العرب » .

وقالت جريدة الكرستيان ساينس مونتور الأمريكية كذلك :

« يبدو أن العدوان البريطانى الفرنسى قد عزز مركز الرئيس عبد الناصر ، والدليل على ذلك تلك المظاهرة الشعبية الرائعة التى قوبل بها فى الأزهر يوم الخامس عشر من نوفمبر سنة ١٩٥٦ حينما ذهب لأداء فريضة الجمعة . لقد خرج الرئيس من المعمعة رمزاً للتصميم المصرى على مقاومة الاستعمار وعدم الخضوع ثانيا للاحتلال الأجنبى » .

وتقول جريدة أمريكية ثالثة . وهى واشنطن ايفننج نيوز مانصه :

« لقد برزت الآن الصورة الحقيقية للحرب المستعرة فى الشرق الأوسط وأصبحت واضحةً للعيان . لقد لجأت بريطانيا وفرنسا ـ بالتواطؤ مع إسرائيل ـ إلى استخدام القوة وفقا لتقاليدهما الاستعمارية العريقة . وبذلك قضتا على مبدأ الأمم المتحدة الذى ينص على التضامن لحفظ السلام ومعاقبة البادئ بالعدوان . واعتبرتا التصريح الثلاثى الصادر سنة ١٩٥٠ قصاصة ورق » .

وقالت جريدة شيكاجو تريبيون : « إذا كانت محكمة نورمبرج قد وضعت مبدأ دائما لمعاقبة المعتدين فإن من بين من يستحق أن يقف فى قفص الاتهام سير أنطونى إيدن ، وسلوين لويد ، ومولیه ، و بينو ، و بن جوريون ووزيرة خارجيته . ثم أضافت الجريدة أسماء الرؤساء الروس » .

وفى هولندا قالت جريدة فراى فولكس :

ما أضأل النصر الذى حققته انجلترا وفرنسا فى هجومهما على عبدالناصر ! ، وآية ذلك أن الجهة التى تأمر الآن فتطاع بشأن قوة البوليس ليست هى انجلترا ولا فرنسا ولا إسرائيل، بل مصر ، ثم قالت : إن لندن وباريس تنتظران الآن بفارغ الصبر تكاملَ قوة البوليس الدولية فى مصر حتى تغادر جنودهما بور سعيد ، وهم محفوظو الكرامة . وختمت كلامها بقولها : « إن سلطة التصرف قد خرجت تماما من يدى انجلترا وفرنسا ، فمن الناحية العسكرية لم يحقق عملهما أدنى نجاح ، ومن الناحية السياسية فقدا آخر بقية من نفوذ كانت لهما فى الشرق الأوسط » هذا هو الانسحاب الختامى لهذا العدوان الخاسر .

السلام المنشود فى المسيحية والإسلام

احتفل إخواننا المسيحيون من الغربيين بعيد ميلاد السيد المسيح عليه الصلاة والسلام ، فكان احتفالهم به نقطة مضيئة فى هذا الظلام الذى ران على العالم منذ قررت حكومتا بريطانيا وفرنسا أن تقدما على العمل الذى جاء السيد المسيح منذ عشرين قرناً من الزمان لا لينهى الناس عما يشبه هذا الفعل أو يدانيه ، بل لينهى عن كل عنف أيا كانت صورته أو باعثه . وقد عاش العالم المسيحى عشرين قرنا ، يتلو موعظة السيد المسيح على الجبل ، التى لخص فيها جوهر المسيحية ، ودعى فيها الناس إلى أن يجعلوا الحب قانون حياتهم ، ودستور إنسانيتهم . فكان الظن أن ألفا وتسعمائة وستا وخمسين سنة كافية لتقضى على الحيوان الرابض فى نفس الإنسان ، أو لتقلم على الأقل أظفاره ، ولكن حكومتى بريطانيا وفرنسا أثبتتا أن دعوة السيد المسيح عليه السلام لا تزال فى حاجة إلى من يبشر بها فى بلاد تقول حكوماتها : إنها تؤمن بالمسيحية ، وتحتفل بعيد ميلادها المجيد .

وقد ألقى كبير أساقفة بريطانيا موعظته التقليدية فى عيد الميلاد ،

كما خطب قداسة البابا ، فتكلم كلاهما عن الأمم المتحدة ، فقال كبير الأساقفة : إنه لايود أن يهاجم الأمم المتحدة لأنها ضعيفة ، لاتحتمل هجوما . وقال البابا : إن الأمم المتحدة جديرة بالتأييد والعون ، لتؤدى رسالتها التى خلقت لها . والحق أن الزعيمين المسيحيين الكبيرين خليقان بأن يتحدثا عن الأمم المتحدة ، وأن يتحدثا عنها بصفة خاصة فى عيد الميلاد المجيد . فالإسلام والمسيحية ـ من بين الأديان جميعاً ـ قد أرسيا للحياة الإنسانية قاعدة لا تختلف عن القاعدة التى قام عليها بناء الأمم المتحدة . فهذان الدينان السماويان ـ اللذان يكمل أحدهما الآخر ، وتقيم تعاليمهما بناء روحيا كاملا ـ ينظران إلى البشرية ككل ، و إلى أبناء آدم المبعثرين فى أنحاء العالم كله ، أبيضهم وأسودهم ، أحمرهم وأصفرهم ، غنيهم وفقيرهم ، كبيرهم وصغيرهم ، كأفراد أسرة واحدة . فالإسلام يوجه الخطاب دائما إلى الناس ، و إلى المؤمنين ، كما يخاطب المسيح الإنسانية جمعاء : فالقرآن يقول مثلا : ﴿ يَأَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى ، وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا ، إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُمْ[1] ﴾ . فهذان الدينان العالميان يدعوان إلى إزالة كاملة لفوارق الجنس ، ولا يعترفان بالحدود الفاصلة بين الشعوب والأمم والدول .

(١) سورة الحجرات .

ولو اكتمل رقى الناس لقامت فى ظل هذه العقيدة للأمم جميعا ـ حكومة لا يقع فى ظلها التنافس الذى نشهده ونشهد آثاره الدامية بين الدول من أجل الأسواق والمواد الخام ، والنقط ذات الأهمية الاستراتيجية .

إن التحليل الدقيق لتاريخ الإنسانية يؤكد أن البشر بطبيعتهم ميالون إلى العيش فى سلام ، وأن الحروب لا يؤجج نيرانها الناس ، بل يدعو إليها ، ويعمل لها الحكام والطامعون فى مزيد من السيادة والسيطرة والنفوذ . خذ مثلا فرنسا فى ظل حكم الإقطاع ؛ فانها لم تعرف طعم الراحة بسبب حروب الإقطاع فيما بينهم ؛ فقد كان كل منهم يطمع فى أن يقضى على غريمه ومنافسه ؛ ليوسع رقعة إمارته ، ويستزيد من أسباب الثروة والسلطان . وكانت فرنسا خلال تلك الحروب الإقطاعية تخرب ، وتسودها المجاعة حينا ، وتجتاحها الأوبئة حيناً آخر ، حتى استطاع أمير كبير أن يخضع سائر الأمراء لحكمه ، ونصب نفسه ملكاً ، فانقطعت الحروب داخل فرنسا ، وبدأت الحروب بين ملكها وبين غيره من الملوك ورؤساء الدول . ولو استقلت الولايات الثانية والأربعون التى تتكون منها الولايات المتحدة ، وأصبحت كل منها دولة لسمعنا عن حروب لا تنتهى بين تلك الولايات والدول ، كما نسمع عن الحروب بين الدول فى أوروبا .

فنجاة الإنسانية كائن فى أن يسود الدول جميعا قانون أسمى منها ،

تخضع له عن طواعية واختيار ، وهو مادعت إليــه الأديان السماوية .
ولو سادت دعوة الأديان النفوس ، ولم تقتصر على المراسم والطقوس ، لقامت الأمم المتحدة منذ عشرين قرنا انقضت على ميلاد المسيح ، أومنذ أربعة عشر قرنا انقضت على ميــلاد الإسلام . ولــكن الدين للأسف الممض (استحال) فى كثير من الأحيان فى الغرب وفى الشرق ـ إلى نصوص تتلى ، فأطمع فيه قراصنة الساسة ، وقياصرة المــال ، فانتزعوا من الدين بركات زائفة ، وأسبغوها ظلما وعدوانا على حمــلات الفتح والغزو ، وأسدلوها رقيقة على جرائم التفرقة بين الأجناس والألوان . وقد فقد الدين بذلك سيطرته الرحيمة الهــادية على القلوب ، واستشرى خطر الحرب ، واستفحل التنافس بين الدول على أراضى وأمــوال وأرزاق الشعوب الفقيرة العزلاء . فإذا كانت الأمم المتحدة ضعيفة اليــوم فإن الذين أضعفوها هم الذين ثاروا على تعــاليم الدين ، وقضوا على حقيقة روحه ، وجعلوا منه هيكلا ماديا لاتدب فيه روح ، ولا ينبض له قلب .
فإذا صح العزم عند الأمم والشعوب على أن تدافع عن وجودها وحقوقها ، وأن تحمى كلمة القانون ، وأن تعلى من راية العدل ، فإن هــذا بشير بأن الإنسانية ستعود بعد طول الضلال إلى ما دعا إليه محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم ، والمسيح ابن مريم عليه السلام .

أحداث جليلة فى هذا العام المنصرم

ألفنا نحن أبناء آدم ـ كلما مرت بنا حقبة من الزمن ـ أن نتلفت إلى الوراء ، وأن نتأمل فيما فعلناه خلالها ، متسائلين أكنا موفقين؟ أم كنا مخفقين ؟ ، ولعل هذه الصفة الأساسية فى أخلاق الناس وطباعهم ، دليل على أن الحياة الإنسانية وحدة متكاملة ، فماضيها يؤثر فى حاضرها ، وحاضرها يكيف مستقبلها ، والإنسان ـ وهو يسير ويتطور ويتقدم ـ يشعر بأنه ماض وحاضر ومستقبل فهو لاينسى الماضى ، ويود لو لم ينته حتى بعد انتهاء حياته . ولولا هذا الميل الجارف فيه لما كان بين الناس شعر ولا نثر ، ولما أجهدوا أنفسهم فيما يجهدونها فيه ، من تماثيل وصور ، ومن أبنية تناطح السحاب ، يخيل إلى من أقاموها أنها باقية لاتبلى ، خالدة لاتفنى .

وعلى سنتنا نحن أبناء آدم ، نتلفت إلى السنة الميلادية المنقضية ، لننظر ماذا أصبنا منها كمصريين وكعرب ، وكأعضاء فى الأسرة الإنسانية . أما كمصريين فقد كان هذا العام أحفل أعوامنا منذ تاريخ

مصر الحـديث ، سواء كان تاريخ مصر الحديث يبدأ سنة ١٥١٧ م حينما نزل بنا الأتراك ، كما ينزل القحط أو الجراد فى أرض ، أم سنة ١٧٩٨ م حينما نزلت بنا الحملة الفرنسية ، فأجليناها ، وكان قائدها يحس أنه سيتخذ من بلادنا قاعدة دائمة ، يوسع منها ملك فرنسا فى الشرق ، حتى يصل إلى الهنـد . أقول : إن عامنا المنقضى كان أخطر أعوام فى حياة مصر الحديثة ، لا أريد من هذا القول المبالغة ، وأقول ذلك أيضا وأنا أعـلم أن العدوان الذى وقع على مصر فى اكتوبر سنة ١٩٥٦ من الدول الثلاث ــ لم يكن أول عدوان جماعى وقع عليها ، فقدِ اجتمعت بريطانيـا وفرنسا ، ومن يتابعهما ويتعلق بأذيالهما ، ويحتمى بحماهما ، أكثر من مرة على مصر ، بل أعرف أن هذه الدول اجتمعت على مصر فى سنة ١٢٤٨ م أى منذ سبعة قرون ، واجتمعت أساطيلها ، كما احتشدت جيوشها على وجه التحديد فى جزيرة قبرص ، واعتزمت أن تتخذ من دمياط نقطة لابتداء زحفها على مصر كلها ، ثم استيلائها عليها . وقد باءت حملتها بالفشل ، فأسر ملوك فرنسا وأمراء بريطانيا ، ونزلت بهم هزيمة منكرة . وقد اجتمعت علينا أساطيل هاتين الدولتين نفسيهما فى « نفارين » سـنة ١٨٢٧ م ، وأحرقت أسطولنـا الذى كان أكبر الأساطيل فى البحر الأبيض المتوسط . ولـكن مصر فى سنة ١٩٥٦ م

تمثل مبدأ وعقيدة جديدين فى الحياة الدولية ؛ ولذلك كان الهجوم عليها ـ بعد التآمر ضدها ، ثم محاولة إخضاعها و إذلالها ـ ذا معان كثيرة ، وقد فهمت الأمم والشعوب هذه المعانى ، فوقفت معنا وأيدتنا ، فكان هذا الوقوف ذاته فتحا جديدا شهده العام المنصرم . وقد بدأ هذا العام منذ أيامه الأولى بالجليل الضخم من الأمور ، وتعاقبت فيه هذه الأمور على مستواها العالى ، وكأن كل حدث فيه يمهد لحدث يتلوه ، حتى بلغت الأحداث قمتها الكبرى فى ٢٦ من يوليه سنة ١٩٥٦ .

شهد هذا العالم فيما شهد أول استفتاء شعبى ، قام على أكبر قاعدة شعبية ؛ فقد اشتركت فيه النساء ، واشترك فيه الجيل الجديد من أبناء الأمة ابتداء بأبناء الثامنة عشرة . وقد جرى الاستفتاء فى جوٍ من الصفاء والهدوء ، أدهش جميع المعقبين السياسيين . أما النتيجة التى أسفر عنها ، فكانت دلالتها أكبر من الاستفتاء نفسه ، فقد كان إجماع الشعب وانعقاد تأييده على انتخاب الرئيس جمال عبد الناصر ـ تأييدا للسياسة التى جرت عليها مصر ، والتى لم يعهدها أصحاب السلطة والسيادة فى هذه الرقعة من بلاد العالم ، والتى أخرجتهم عن كل تقليد مرعى من تقاليد السياسة الدولية ، التى تؤمن بضبط النفس ، والتزام أسلوب

من إخفاء ما تضمره القلوب ، وما تخفيه النفوس .

وقد شهد هذا العالم جلاء الإنجليز عن منطقة قنال السويس وعن قواعدهم فيها ، وقد كانت هـذه المنطقة حجر الأساس فى كل مفاوضة أو معاهدة أو محادثة بين ساستنا الرسميين ، وبين الإنجليز . ذكرت فى اليوم الثالث عشر من نوفمبر سنة ١٩١٨ قبيل اندلاع ثورة سنة ١٩١٩ ، ثم بقيت تتردد وتدور حول المناورات والمحـاورات حتى جلوا عنها فى الثامن عشر من يونيه سنة ١٩٥٦ ، بعـد أربعة وسبعين عاما ، فاض على جوانب أيامها ولياليها دم الشهداء الزكى ، وشهدت ويلات الاستخراب الذى نسميه زورا وبهتانا بالاستعمار ..

وبعد أن طم موج الأحداث ، وارتفعت مصر عالياً إلى مستواها الرفيع ، ضربت يد الوطنيين آخر معقل من معاقل الاستخرابيين ، أى الاستعماريين ، فأممت شركة القناة ، فـكان العدوان ، ثم كانت وقفة مصر ، ثم كانت هزيمة المعتدين وانسحابهم . . فأية نتيجة طبيعية حتمية تنتظرها لهذا كله ؟ ، لا يجادل عالم بالقانون ، أو حتى جاهل به فى أن الاتفاقيـة المبرمة بيننا وبين زعيمة المعتدين ، والتى يفترض فيها أن قوامها الصداقة والتعاون لا يمكن إلا أن تـكون قد انتهت فى يوم العدوان ، وقد انتهت فعلا ، ولا يهم أن يقبل ذلك الإنجليز أو يكابروا فيه .

أىّ فــراغ يريــدون ؟!

— ١ —

حينما يريد الواحد منا أن يبالغ فى التهوين من شأن إنسان أو جماعة ـ يصفها بأنها كالعدم . وتقابل كلمة العدم وتساويها فى معناها كلمة « الفراغ » . والفراغ والعـدم شيئان متساويان ، على الأقل فى المعنى الذى ينطبع منهما فى عقل السامع ، إلا أن بعض الدول لم تتحرج منذ سنين طويلة أن تستعمل كلمة « الفراغ » وهى تتحدث عن مناطق آهلة بالسكان ، غنية بالخيرات الطبيعية والميزات الجغرافية ، كبيرة بالدور الذى لعبته فى الماضى ، وبالدور الذى ينتظر أن تلعبه فى المستقبل . والعجيب أنها وهى تستعمل كلمة « الفراغ » لا تحس أنها تلحق أكبر الإهانة وأعظمها بسكان هذه المناطق ، والأعجب أن سكان تلك المناطق يناقشون مسألة « الفراغ » هـذه كأنما يناقشون مسألة علمية أو حقيقة مادية ، دون أن ينكروا على الناس أجمعين حقهم فى أن يحكموا عليهم بالإعدام وهم أحياء .

ونظرية « الفراغ » هذه جديرة بالتأمل ؛ لأننا كلما تأملنا فيها بدت لنا حقائق فى السياسة الدولية ، يجب أن لا تغرب لنا عن بال ، ولا أن تغيب لنا عن عين .

فالدول كما نعلم ، بين قوية غنية بالسلاح والمال ، و بين ضعيفة لا مال عندها ولا سلاح فى يدها . ولكن من أحكام الحياة الإنسانية ما نص عليه القرآن الكريم فى قوله : ﴿ وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ [1] ﴾ فالدول فى تطور مستمر : فى مد وجزر ، فى إقبال و إدبار . فالأقوياء يجوز عليهم الضعف ، والضعفاء تجتمع لهم أحيانا أسباب القوة . ولهذا فإنه من الطريف الشيق أن نتأمل موقف الدول القوية من الدول الصغيرة التى تتدرج نحو أسباب القوة والمنعة ، أو من الدول المحكومة التى تفك عن نفسها قيود السيطرة والتحكم .

فإن الدول القوية لا يخيفها مثل الأمم التى يبدأ نجمها فى الصعود ، لأن هذه الأمم لا تكبر ولا تقوى ، ولا تنتقل من طور الحبو إلى دور السير إلا بعد أن تتجمع لها عناصر من القوة ، أشبه شىء بما يتجمع فى جسم ونفس الإنسان الذى يبلغ مرحلة الشباب ؛ لذلك ما تكاد تصل أمة إلى هذا الدور ، حتى تجتمع عليها الدول الكبيرة ، لتحول بينها

(١) سورة آل عمران

و بين اكتمال النضج ، ولتردها عن مكان الصدارة كلما يثبت قدمها ، أو يقوى عزمها ، فإذا نجحت فى ذلك ، وأتلفت على الأمة الجديدة شبابها ، وضيعت عليها أملها ، وفرضت عليها الضعف ، بدأت تقول : إن هذه الأمة المسكينة فى حاجة إلى من يحميها ؛ لأنها بضعفها تغرى الأقوياء بها . وهذه الحماية التى يتبرع بها الأقوياء هى بالضبط المقصود من كلمة « الفراغ » و باختصار : « إن الدول القوية تخلق « الفراغ » ، ثم تطلب أن تملأه هى » ؛ فالفراغ فى الحياة الدولية لا يوجد من تلقاء نفسه أبدا : لأن الأمم جميعا مفطورة على حب التقدم ، ولأن السير الطبيعى للحياة الإنسانية يؤدى بالناس إلى تجميع أسباب القوة والنهوض والنضوج .

ولنأخذ من تاريخ مصر الحديثة مثلا يعيننا على فهم نظرية « الفراغ » . ففى أخريات القرن الثامن عشر بدأت شخصية مصر الدولية تنضج ؛ فقد نشأت فيها دولة على بك الكبير ، فكانت الزاوية فى وحدة البلاد العربية ، واستقلت مصر عن تركيا تقريبا ، ثم هزمت مصر الفرنسيين وطردتهم عن بلادها ، ثم طردت الوالى التركى ، ثم نشأت دولة محمد على ، فاجتمع لمصر جيش مدرب ، ونشأت فيها مصانع للسلاح والذخيرة ، وترسانة للصناعة البحرية ، ونما أسطول مصر ، حتى أصبح أكبر الأساطيل فى البحر الأبيض المتوسط، أو فى شرقه على الأقل .

فلو كانت الدول الكبيرة تصبر على نشوء قوات دولة أخرى إلى جوارها ، لفرحت بالدولة المصرية الفتية الناشئة ، ولباركت نموّ جيشها ونشوء أسطولها ، وازدهار صناعتها . ولكن الذى حدث أن هذه الدول لم تكفّ عن الصراخ من هذه القوة الجديدة الناشئة الصاعدة على سلم العزة والمنعة ، وما زالت تأتمر بها وتحرص عليها حتى سدت أولاً فى وجهها سبل القوة ، ثم أخذت تخرب فيها حتى أضعفتها ، وما زال الضعف يستشرى فيها ، ويستفحل ، حتى سُقط فى يدها ، فسرّحت جيشها ، وباعت أسطولها ، وأغلقت ميناءها ، ثم قالت : إن فى مصر « فراغا » لا بد أن يسدّه الجيش البريطانى ، وإلا وقعت مصر فى يد غيرها من الدول .

ولعلنا نذكر جميعا أن بريطانيا شكت فى يوليه سنة ١٨٨٢ من أن حكومة مصر ترمّ بعض طوابيها فى الاسكندرية . وكأن ترميم هذه الطوابى القديمة الآيلة للسقوط كان تهديدا لسلامتها ، وهى التى تقع فى الغرب الأقصى من أوروبا ، فلما وقعنا فى براثنها اعتبرت ضعفنا فراغا ، وأرادت أن تملأه هى . وعلى هذه السنّة جرى الاستعمار ، فإيطاليا الملكية حينما أرادت أن تحتل طرابلس وبرقة فى سبتمبر سنة ١٩١١ ادّعت أن القوات العثمانية فيهما من الكثرة بحيث أصبحت تشكل

تهديدا لها . فالفراغ هي كلمة متلكئة في قاموس الحياة الدولية ، تخلفت عن القرنين الثامن عشر والتاسع عشر ، وهي نابية عن عقلية القرن العشرين ، وهي إذ تطبق على الشرق الأوسط ، تبدو أبعد ما يكون عن حقائق حياته ، فالشرق الأوسط إذا اجتمعت موارده بعضها إلى بعض، وعدد سكانه والمضايق الهامة التي توجد فيه ،مثل جبل طارق و باب المندب وقناة السويس ، لكان أقوى وحدة بين الدول ، فهو بهذا أغنى من الولايات المتحدة ، ومن الصين ، ومن الاتحاد السوفييتي ، كلٍّ على حدة . فكيف يقال على منطقة هذا حالها ، إن بها فراغا يراد له أن يملأ ...؟.

— ٢ —

روت إحدى المجلات الأسبوعية الأمريكية عن تيودور روزفلت الذي كان نائبا لرئيس جمهورية الولايات المتحدة في سنة ١٩١١ أنه ألقى في تلك السنة خطبة ، استشهد فيها بالمثل المعروف بين أبناء قومه ، والقائل: « قل كلاما لطيفا ، وامسك عصا غليظا ، تنل خيرا عميما » . وذكرت المجلة أنه لم ينقض على هذه الخطبة شهران حتى أصبح تيودور روزفلت رئيسا لجمهورية بلاده إذ اغتيل رئيس تلك الجمهورية في ذلك الحين ، فأتيحت الفرصة لتيودور روزفلت ليطبق هذا المثل القومي على

السياسة ، فطبقه فعلا فى الحرب الأسبانية الأمريكية فاتضحت سلامة سياسته ورجاحتها ، بعد أن كان يحصب بنعوت منها وصفه بالميل إلى العدوان ، والتلويح بالسيف والخنجر ، وبلغ من إقرار الناس بصواب هذه السياسة أنه مُنِحَ جائزةَ نوبل للسلام .

وتعتقد هذه المجلة الأمريكية ، أن رئيسا آخر للويالات المتحدة ـ يؤمن بنفس المثل ـ قد أرسلته العناية الربانية لهـذه البلاد الكبيرة ، وللسلام فى العالم كله ، ذلك هو دويت أيزنهاور الذى استوحى فى بيانه الذى أصدره عن الشرق الأوسط نفس المثـل الذى آمن به روزفلت الـكبير ، فإنه قد جمع فى رأى هذه المجلة بين حلاوة اللفظ وعذوبته ، وبين حمله عصاً غليظة . أما اللفظ الحلو فكناية ـ عند المجلة ـ عن أربعمائة مليون من الدولارات سينفقها الرئيس على الشرق الأوسط المتخلف الفقير ، لتسد عوزه ، وتقيم أوده ، وتعينه على السير إلى الأمام بدلا من التعثر والتخبط ، أما العصا الغليظة فهى قوات الولايات المتحدة المسلحة ، التى طلب الرئيس الأمريكى الترخيص له باستعمالها عند ما يرى ذلك ضروريا ولازما ، وبناء على طلب دولة فى الشرق الأوسط تقع فى الضيق ، وتطلب الغوث والمدد .

ولست أدرى مدى الصحة والصواب فى هذه المقارنة التى تعقد

بين رجلين يفصل بينهما نصف قرن من الزمان ، ولكنى أدرى أنى سمعت فى طفولتى قصة أضحكتنى زدت على مر الأيام اقتناعا بما فيها من حكمة . وأعنى بها قصةَ الرجلِ الغنِي الذى نزل بساحته الفقر ، فتجمل بالصبر حتى نفذ آخرُ مليمٍ عنده ، وكاد ينكشف سِتْرُه ، فقصد باب السلطان ، وكان رجلا حكيما ، فلما مثل بين يديه قال للسلطان : إنه لم يعتد أن يمد يده ، فقد كفاه الله شَر الطلبِ من الناسِ ، إلا أن الله امتحنه أيضا بفقر شديد ، فلم يعد مناص من اللجوء إليه والاستعانة بمدد من عنده ، راجيا ألا يعرف أحدٌ من الناس أنه مد إليه يده ، فسأله السلطان ليمتحن صدقَ دعواه من أنه كان عزيزَ قوم ذَل : أى أجزاء الفرخة المحمرة أشهى عنده ؟ فقال له : « جلدها » ، فثبت لدى السلطان أن الرجل لم يكذب عليه ، وأمر بأن يكافأ بعطية ثمينة . وخرج الرجلُ شاكرا المولَى أن أسبلَ عليه الستر ، ولكن جاره ــ وكان رجلا حسودا ــ لم يطق أن يرى مظاهر النعمة على جاره ، فأخذ يسأل عن سرها ، حتى عرف الأمر ، فذهب من فوره إلى السلطان ، ولما مثل بين يديه سأله السلطان عن أشهى أجزاء البقرة « المحمرة » فقال « جلدها » فعرف السلطان أنه رجل يقلد ولا يفكر ، فأمر بجلده بمقدار ما أخذ جاره من دنانير ... !

فالمجلة الأميركية إذ تنصح رئيسَ أيةِ دولة يعيش فى هذه الأيام ، بأن يقلدَ رئيسَ دولة آخر كان يعيشُ منذُ ستةٍ وخمسينَ عاما ، إنما تفعل ما فعله هذا الجار الذى حَسِب أن كل كلام يَصلُح فى كل زمان، وفى كل مكانٍ ، وقد نال هذا الرجل بسبب قصر نظره عقاباً . إلا أن المجلة الأميركية لا تنصح نفسها بهذا الكلام ، ولا تعظ قراءها به ، إنما تنصحُ به رجلاً يتجاوزُ أثرُ قراراتِه دولتَه إلى العالم الكبير الذى نعيش فيه .

والخطأ الجسيم الذى تقع فيه هذه المجلة أنها لا تزال تؤمن بسياسة تيودور روزفلت وأمثاله ، وأنها لا ترى التغير الذى حدث فى العالم . فهى لا تعرف مثلا أن هناك قوة جديدة نشأت ، وأن هذه القوة قد عاصرتْ ميلادَ انطلاقِ القوةِ الذريةِ من عِقالها ، فهى تشبه هذه القوة الذرية فى عمق أثرها ، وبعد نتائجها ، وأعنى بها قوةَ الشعوب. فقد كان فى آسيا وأفريقيا ملايينُ من الناس ، لم يزد قدرهم عند الاستعمار الغربى عن قدر الهوام والحشرات . فقد كانت تسلطُ عليهم المبيدات ، كما تسلط على الآفاتِ الحشريةِ صنوفَ السموم . كانوا يقتلون بل يبادون بالألوف ، وينقلونَ من مكانٍ إلى مكانٍ كما تنقلُ قِطعانُ الحيوانات والدواب . وكان مرآهم فى المدن يعكر على الغربى صفوَ مزاجه .وهؤلاء

جميعا قد استعادوا اليوم آدميتهم ، وأصبحت لهم أدمغةٌ تفكرُ ، وعقولٌ تدبرُ ، وألسنةٌ تتكلمُ ، وأذرعٌ تدافع وتقاتلُ عند الاقتضاء .

والحق أن تبينَ هذه الحقيقةِ الجديدةِ شاقٌ ، وخاصة لمن عاش حياتَه يفكر على غير أساسها . والدليل على أن تصورَها والإيمانَ بها ليس يسيرا أن المجلةَ التى أسدتْ هذه النصيحةَ فى عدد الأسبوع الأسبق هى نفسُ المجلةِ التى عادتْ فى الأسبوع السابق لتقول بصراحة و بغير أيةِ موار بةٍ : إن خروج القوات البريطانية والفرنسيةِ من الشرق العربى و إنهاء نفوذ بريطانيا وفرنسا فيه قد أوجدا فراغا ، و إن هذا الفراغ إما أن تملأه الولايات المتحدة و إما أن يملأه الاتحاد السوفييتى ..

وهى فى موضع آخر تعدد المخاطرَ التى تهدد الشرقَ الأوسط ، فتجعلُ فى مقدمتِها جميعا الوطنيةَ العربيــة ... ! فالمرض عنــد هذه المجلة وعند من يَلُف لَفها ، و يؤمنُ بمنطِقِها ـ هو الامتلاء والقوة ، والصحة عندها هى الفراغ والهزال . وهو منطقٌ لا يشاركُها فيه إلا طبيب نزع الله من قلبه الإيمان بنبل وظيفته ، وسمو رسالته فاعتبر الأو بئة خيرا يطلبُ من الله أن يديمَه ، ليديم عليه هو الرزق الواسع ، واعتبر الصحةَ والشفاء ، وسعادة الناسَ ، كوارثَ يجزع لهــا ، و يشفق منها ....

جاهلية حديثة

كانت بعض القبائل فى الجاهلية تئد البنات ، أى تدفنهم أحياء ، وكان تعليل هذه الفعلة الشنعاء أن تلك القبائل كانت تقضى على تلك الأرواح البريئة إشفاقا مما قد يعرض للبنت إذا تقدم بها العمر ، واكتمل لها الشباب ، من بواعث الفتنة التى قد ينثلم لها العرض أو يؤذى فيها الشرف . فقتل البنت فى الجاهلية كان السبيل إلى حماية الشرف . وهو فهم جاهلى للمعانى العليا فى الحياة الإنسانية نهى عنه الدين ، واستقام فى ظل هذا النهى لون من الحياة الشريفة فعلا ، لا يقترف الآباء فى ظله هذه الجريمة المنكرة . وقد كنا نحسب أن الجاهلية قد انتهت . وأن الأديان بما أشاعت من نور وثورات الفكر وبما أرسلت من قواعد للحرية ، وأن أقلام الكتاب ودعاة الإخاء الإنسانى ، بما كتبوا وبما احتملوا قد نزعوا من نفوس الحاكمين والساسة الموجهين ــ الميل إلى السطوة والسيطرة ، إلا أننا نشهد هذه الأيام عقلية سياسية جاهلية تدعو إلى ما يشبه وأد البنات خوفا عليهن مما قد يعرض لهن من مهالك الإغراء وتجارب الحياة .

فالساسة الكبار لاينفكون يتحدثون عن إيمانهم بحق الشعوب فى الاستقلال والحرية ، فإذا جاء ذكر الشرق الأوسط زادت نبرة الحديث عن الحرية والاستقلال ارتفاعا ، وزادت الألفاظ فى هذا الحديث رنينا ، حتى ليحسب الإنسان أنه لاشغل يشغل أذهان هؤلاء المتحدثين إلا استقلالنا نحن العرب واستقلال دول الشرق الأوسط . ومع ذلك فإن هؤلاء المتحدثين لايجدون وسيلة لحماية هذا الاستقلال وتدعيم أركانه وتثبيت قواعده وإحاطته بما يقيه شر العدوان — إلا مايشبه وأده وإنهاء حياته . فما يقدم أهل الشرق الأوسط على عمل ينبعث عن استقلالهم ، ويعبر عن شعورهم بحريتهم ، ويكشف عن رغبتهم عن أن يتلقوا من أحد إملاء أوتوجيها — حتى تتوالى الاقتراحات لصيانة هذا الاستقلال ، وهى لاتخرج جميعا عن إسلام رقبته لحبال أوأطواق من حديد ، إن أخلد إليها أسلم أنفاسه ، وانطوت صفحة حياته .

لقد أعلنت مصر ، وأعلنت معها دول الشرق الأوسط سياسة عدم الانحياز ، وهى سياسة لاتصدر إلا عن شعوب حرة تفهم معنى الحرية فهما صحيحا ، فغضب المتحدثون عن حرية الشرق الأوسط وعن استقلال شعوبه من هذه السياسة ، واعتبروا أنه سيهب على هذه المنطقة أعاصير ستقتلع استقلال دولها ، ورأوا علاجا لهذه السياسة أن تقام أحلاف تضم دول الشرق

الأوسط وغير دوله حتى يحمى استقلالها من عدوان العادين . و إذا عاش الشرق الأوسط فى ظل خطر متجدد من إسرائيل وحروبها بأسمائها المختلفة من وقائية وتوسُّعية ، وطلبت دول هـذا الشرق سلاحا ممن يقولون : «إن استقلالنا يهمهم و يشغل بالهم» ـ اعتبر هذا الطلب خروجا على المفهوم الصحيح لمعنى الاستقلال الذى يراد لنا ، وحرم علينا أن نتسلح،أو اختير لنا أن نعيش فى ظل الخطر . فإذا ماضاقت بنا سبل إقناع الأوصياء على حرية الشرق الأوسط واستقلاله ، والتمسنا السلاح الذى يحمى هذا الاستقلال ويدفع عنه العوادى ـ امتلأت الدنيا ضجيجاً بأننا أضعنا استقلالنا و بعناه لمن يطمع فينا ، و يبغى التسرب إلى مكامن القوة فى أراضينا . و إذا استرددنا حقاً من حقوقنا ، و بسطنا سيادة وطننا على قطعة منه لا تنفصل عنه، واستعملنا حقا استعمله غيرنا من الدول التى تصدر الحريات وتصوغ قوالبها وتحرر دساتيرها ، اعتبر ذلك مجازفة باستقلالنا ، وفتحاً لأبواب المخاطر على حريتنا ، ورأى الأوصياء على هذا الاستقلال وعلى تلك الحرية أن يحشدوا لحمايتها أساطيلهم فى البحر، و يعبئوا جيوشهم فى البر ، وأسراب طائراتهم فى الجو ، فإذا دعونا الناس جميعا ليقفوا معنا، وليمدوا أيديهم إلينا وَلْوَلُوا من فَرط الحزن على استقلالنا ، وشقوا الجيوب ألماً على حريتنا ، وقالوا : إن الجرعات التى تقوِّى ذلك

الاستقلال ، وتثبت قدم تلك الحرية هى أن نستقبل العداة مرحبين ، وأن نتلقى مايجودون به علينا من قذائف الماء والسماء ، داعين بالعز وطول البقاء . فإذا استبسلنا وثبتنا ووقف الرأى العام معنا أقيمت الجنازة الكبرى لاستقلالنا المسكين .

لقد كان الإنجليز يمنون علينا فى الحرب العالمية الثانية كما منُّوا علينا فى الحرب العالمية الأولى — بأن احتلالهم أنقذنا فى الحالين من الوقوع فى أيدى الغزاة والفاتحين ، وطلبوا إلينا أن نسبح بحمد ذلك الاحتلال الكريم ؛ لأنه حمى استقلالنا ووقى حريتنا . وقد كان الظن أن عهد هذه الحجج قد انطوى ، وأن الشعوب قد أثبتت أنها جاوزت طور الطفولة الذى يجوز فيه على صغار العقول كلام من هذا القبيل ، ولكن الذى يقال اليوم ، والذى يراد بالشرق الأوسط — بعد كل هذه التجارب — هو الذى كان يراد له قبل سبعين عاما ، وخلال الحربين العالميتين المنصرمتين . يراد لنا أن يكون استقلالنا دمية نلعب بها ونلهو ، فإذا أردنا أن نأخذه مأخذ الجد ، وأن نستعمله فيما يستعمل فيه الرجال البالغون استقلالهم — أخذ من أيدينا خوفا عليه منا . فالجاهلية كما ترى — أيها القارئ — لم تنته .

فالذين جعلوا من أنفسهم أوصياء على استقلالنا ينصحوننا بأن نقتله حتى لا يتعرض لمهالك الفتنة ، ومزالق الإغراء ، ولكن السؤال الذى يراد الإجابة عليه قبل ذلك ، هل صحيح أن الجاهلية لا تزال باقية . . ؟ وهل صحيح أن الشرق الأوسط يقبل حكمها و يتجرع جهلها . . ؟ . . . .

استنفتوا الشعوب فى سياسة الاستعمار

تقول إحدى المجلات الأمريكية التى تعنى بتسجيل أخبار السياسة الدولية : إن موسى شريت وزير خارجية إسرائيل السابق قدم بيانا إلى زملائه أعضاء برلمانها عن رحلته فى بانجكوك حيث عقد مؤتمر الاتحاد البرلمانى الدولى ، فقال فى هذا البيان : إنه أحس بجوّ من العزلة يحيط به و بأعضاء وفد إسرائيل ، لم يسبقْ له ولا لزملائه أن عانوا مثله فى أيٍّ من المؤتمرات الدولية السابقة ؛ فلم يكن مندو بو الدول العربية هم وحدَهم الذين قاطعوا الوفد الإسرائيلى ، وتجنبوا الاتصالَ به ، أو التحدثَ إلى أعضائه ، أو الاقرارَ بوجوده ، بل إن أحد أعضاء الوفد النرويجى تقدم إليه وقال : « إننا نحن أهلَ النرويج لا نريدُ أن تتساقطَ على رءوسِنا القنابلُ الذريةُ من أجل خاطرِكم ، وأنتم أيها الإسرائيلون قد ذهبتم بنا إلى حافة الحرب » .

وليس هناك ما يسعد الإنسان الذى يؤمنُ بأن الناس يجبُ أن يعيشوا إخوةً متحابين ، وألا يضيعوا وقتهم ومالهم فى تحضير السلاح الذى يقطع به كل منهم رقبة أخيه ، أو الحطب والثقاب الذى يحرق بهما

دار جاره ، أو حقله . . . ليس هناك شيء يسعدُ الإنسان الذى يؤمن بأن الوقت قد حان ليخلُصَ البشرُ من الرواسب الحيوانية الباقيـة فى نفوسهم ، أكثر من أن يسمع أن الجريمة تلقى عقابهـا أو جزاءها ، لا من المحاكم التى أُعدتْ لتقتص من الُجناة ، بل من الناس أنفسهم . فالقضاة ليسوا سوى ممثلين للمجتمع ، اختارهم ليحكموا باسمه ، وليحموه من عُدوان اللصوص ، وسافـكى الدماء ، وقاطعى الطريق ، وهاتـكى العرض . فإذا كان ضميرُ القاضى وحـده هو الذى ينـكر الجريمةَ ، ويغضَب لوِقوعها ، وإن كان حكم القاضى هو التعبير الوحيـد الذى يلجأ إليه المجتمع ، عن استقباحه ما يقع فى حقه من آثام ، وما يهدد أمنه من مخاطر ، استشرت الجريمة واستفحل شرها ، واتسع نطاقها ، وقام فى المجتمع آلافٌ من المجرمين ، فى أثواب الشرفاء والأبرار ، ليعطلوا حكم القاضى ، أو ليضعفوا من أثره ، أو ليفلتوا الجناة والآثمين من يد القصاص .

وما يحدُث فى المجتمعِ الصغيرِ مثل قريةٍ أو مدينةٍ أو دولةٍ ، يحدث فى المجتمع الـكبير الذى نعيش فيه ، والذى أصبح أضيقَ وأصغرَ مما نتصور ، بفضل الطائرات التى تلغى المسافات ؛ والإذاعات التى تتخطى الحواجزَ والقيودَ ، وتهزأ منها ، و بفضل ارتباطنا فى شئون

الاقتصاد والثقافة . ولقد جاءت أزمة قناة السويس التى خلقها الاستعمارُ البريطانى الفرنسى مستعينا بقاعدته فى الشرق الأوسط التى تسمى إسرائيل ، جاءت هذه الأزمة لتقرع ضمائر النائمين ، ولتوقظَ عقولَ الذين يعيشون فى القرن الثامن عشر ، ولتقول لهم : إن العالم اليوم أمةٌ واحدة . فما كادت عملية الحرب تسدُ قناةَ السويس ، حتى أحس بذلك النرويجى والإيطالى والهندى والأندونيسى ، كأن قناة السويس تجرى فى أرضهم ، وأدركوا جميعا أن القنابل ـ التى أمطرها إيدن ومولييه وبن جوريون على رأس المصريين الآمنين فى القاهرة ـ لم تقع على رأس أهل هذه المدينة ونسائها وأطفالِها ، ولم تهدم بيوتَ بورسعيد، ولم تُشعل الحرائقَ فى دورهاَ فحسب ، بل إنها سقطت على كلّ امرأة وشيخ وطفلٍ فى الدانمرك والسويد وسومطرة .. وأن الحرب التى كان ينفخ إيدن ومولييه فى نارها لم تـكن لتأتى على سعادة المصريين وأمنهم واستقلالهم وحدهم ، بل إنها كانت موشكةً أن تلتهَم أرواحَ الملايينِ فى العالمِ كله . هذا الإحساس هو الذى عبر عنه فى بساطة ووضوح مندوب النرويج الذى جاء إلى موسى شريت وقال له : « إنى غـيرُ مستعدٍ أن أتلقىَ على بيتى ـ أنا وأطفالى ـ القنابل الذرية من أجل سوادِ عيونِ إسرائيل ، و بسبب أطماعِها التى هى أطماعُ الاستخرابِ الذى يسمى الاستعمار » ..

هذا الاستخراب الذى أراد قبل أن يجلو عن أرض الشرق الأوسط ، أن يترك له ممثلين ووكلاء ، وأن يبنى لنفسه قاعدة باسم جديد ، هو : إسرائيل ، ليكسبَ من صفتها كدولة ، حماية القانون الدولى . .

ولو أن هذا التعبير الذى عبر عنه مؤتمر الاتحاد البرلمانى الدولى وأصر عليه الناس فى كل مكان ، ولو أن العالم أعطى ظهره للاستخراب الذى أسماه ذوو الأطماع فى الغرب « إسرائيل » ، كما أعطى أعضاء ذلك المؤتمر ظهورهم لمندوبى إسرائيل فيه ـ لساد العالم سلام عظيم ولعادت الحياةُ والرفاهية والدفء إلى بيوت العمال الذين خرب حياتهم إيدن ومموليه ، فضربهم بالبطالة وطردهم من أعمالهم ، حتى اشتدت هجرة الشعب البريطانى إلى استراليا وكندا ، فرارا بنفسه من الوبال والخراب الذى تدبره له سياسة هؤلاء الذين لايعرفون أن الملكة فكتوريا ماتت منذ أكثر من خمسين عاما ، وأنها حين ماتت ماتت معها الإمبراطورية بوسائلها الاستخرابية جميعا .

إلا أن الرأى العام العالمى يجد دائما من يضلله ، أو على الأقل من يحاولُ أن يضللَه ويحول بينه وبين أن يتصرف كما تصرف أعضاء الاتحاد الدولى البرلمانى فى بانجكوك . فالعالم بفطرته يعتقدُ أن الجريمة لاتجدى ، وأن اللص الذى يسرقُ ، وقاطعَ الطريق الذى يقتلُ ،

يفرح أول الأمر بما نهب من مال أو بما سفك من دم ، ثم يرى قليلا قليلا أنه لم يجن منهما إلا الشوك والحسك ، غير أن المحاولات تبذل لتشكيك الناس فى صحة هذا المبدأ،فإسرائيل التى استعار الاستخرابيون اسمها ليضربوثا بها وليسدوا قناة السويس فى وجه العالم ، يراد أن يستعمل اسمها لخلق أسباب جديدة للفتنة والقلاقل فى الشرق الأوسط ؛ فبدلا من أن ينزل بها العقاب ، و بدلا من أن تتكلف أداء التعويض عما دمرت وخربت حينما خلا لها الجو ، وتوقف القتال ، يراد منا أن نقدم لها هدايا كانت تود أن تهدى إليها ممن خلقوها ودعموها ، وشملوها بالتبرعات والمساعدات وعبارات الإعجاب بالعمل المجيد الذى تصنعهُ فى الشرق الأوسط وسط دول مختلفة . . إلى آخر هذا الهراء القبيح الذى تلفظه أحشاء الدعاية المغرضة ·

نعم . . ! يراد فى أعقاب عدوانها الوقح الأثيم و بسببه أن تمنح حرية الملاحة فى العقبة ! . و يراد أن تُدوّل لها منطقة غزة ! ، و يراد أن يسمع لهذه الحجج ! ، كأن من حق إسرائيل أن تشترط شروطاً لرد ماسرقته ونهبته .

إن الجريمة لا تجدى ولا تنفع ، هذا هو مافهمناه ، وهذا ماعلمتنا إياه الأديان وعلمتنا إياه كتب فلاسفة الغرب ، التى تطبع وتوزع

الآن مجانا ، ولكن مايجرى فى المحكمة التى صنعها الناس بعد طول الشقاق ؛ ليسلموا ويأمنوا العدوان ، سيحمل بعض الناس على أن يظنوا أن الجريمة تجدى ، وأنها هى الأساس المقترح للمجتمع الجديد الذى يتمناه بعض الأقوياء ، ولكنها أمان كواذبُ لن ترى النور أبدا . . .



فكاهات الأطفال على مسرح السياسة

هناك بعضُ أمثالٍ مصرية وغير مصرية قيلت لشرح بعضِ الأحداث الدولية ، أو لتبرير بعضِ الأطماع السياسية .

وأول هـذه الأمثال ما قالتْه إسرائيل ، وهى تبررُ تلكؤها فى الانسحاب من قطاع غزة ، فقد استشهدتْ بمثلٍ معروفٍ بين أبنائها ، عن حمارٍ أو حصان قال له الناسُ : « سنقطع رأسك ، ونعطيك بدلا منه ، بيتاً من شعير » . و إسرائيل ترى أنها ستكون كهذا الحمار أو كهذا الحصان ، إذا عاد قطاع غزة إلى مصر ، أو إذا انسحبت هى منه أو على الأقل إذا لم تقم فيه إدارةٌ دولية . وقد ذكرنى هـذا المثل ، والاستشهادُ به ، بهذه السلسلة « السينمائية » التى كنا نراها ونحنُ صغارٌ ، فنفرح بها ، ونروى للناس وقائعها ، وكان ذوونا يسمعون إلينا ونحن نقص غرائبها ، فتمرُ على شفاههم ابتسامةُ فرحٍ لفرحنا ، ولكنها كانت تخفى فى الوقت نفسه الضحكَ منا ؛ لأن سُخافات هذه السلسلة كانت فجةً جافيةً ، لا تجوز إلا على عقل طفل . ولا زلت أذكر اسم

هذه السلسلة ، فقد كان غريبا مثيراً لفضول الصغار والكبار ، فقد كان اسمها : « فارس بلا رأس » . وكان بطلها فعلا فارساً بلا رأس ، لأنه أخفى نفسه فى درع من حديد ، يشبه جسم الإنسان ما عدا الرأس ، وكان يتحركُ داخل درعه الفولاذى ويبطشُ بالأبرياء مستعينا بأعوانٍ يهيئون له أسباب الفوز ، ويجمعون له أسلحة القتال ، وهم لا يظهرون .

ولكن ما كان سخفا فى رأى ذوينا منذ ثلاثين عاما ، وما كان يُفرِحُ الأطفال ، ويدخل السرور إلى قلوبهم ، ويجوز على عقولهم ، أصبح عملاً سياسيا جاداً ، تقول به دولةٌ ، فتصدقه دول كبرى ، أو على الأقل تتظاهرُ بتصديقه ، وتأخذه مأخذَ الجد وتحسبهُ مشكلةً من مشكلات الحياةِ الدولية ، يستحق أن يناقش ويبحث ويذلل ما يقيمه من عقبات .

فإسرائيل هذا الفارس الذى صنعت له انجلترا وفرنسا وغيرُهما درعا من فولاذ يتحركُ داخله فى هذه الرقعة الهادئة الوادعة من الدنيا : رقعةِ الشرق العربى التى برئت منذُ خلق اللهُ الخلقَ ، من أوضارِ التعصب وأوزاره .

فإسرائيل التى ولدت فى حجر القوة ، وحبت فى ظل الغصب ، وعاشت فى حضن العنف ـ اكتشفت اليوم ، وبعد نحو عشر سنوات

من ميلادها ، أنها بلا رأس ! . وأدركت أنها كالحمار الذى عرض عليه أن يأخذَ بيتاً من شعير ، فى مقابل رأسه التى طاحت . . .

ولم تكن غزة يوما ماخلال هذه السنوات التى عاشتها إسرائيل من الأراضى التى اغتصبتْها من عرب فلسطين وشردت أهلها، فكيف تصبحُ فى يوم وليلة رأس إسرائيل ؟ ! . وإذا صدقنا أنها من إسرائيل كالرأس من الإنسان ، فكيف نصدق أن إسرائيل هذه استطاعت أن تعيش هذه السنوات كلها بلا رأس ؟ ! وكيف قبلت الأمم المتحدة والمملكة المتحدة ، والولايات المتحدة ، وكل هذه المنظمات والقوى الدولية أن تتعامل وتتعاهد وتتعاون مع مخلوق دولى يعيش بلا رأس؟! قد يكون هذا الكلام أدخل فى باب الفكاهة، وإن كانت فكاهة سمجة ثقيلة ، أكثر منه فى باب الجد الذى يقبله الجادون ، ويديرون على أساسه كلامهم ، ولكنه مع ذلك كلامٌ خطيرٌ جدا ، ووجه الخطر فيه أن بعض الدول لاتدرى عواقبه الوخيمة ، ولا تدرى عواقب الإنصات إليه ، والاحتفال به ؛ فقد قلت فى المقالات السابقة إن ماتثيرُه إسرائيل من مشكلات ، وما تتقدم به من مطالب ، قد جاء فى أعقاب عدوانها الذى دمغتْه الأمم المتحدة بما لامزيد عليه من الوضوح والقوة .

فإذا سمحت الأمم المتحدة للمعتدين الذين مزقوا سلام الآمنين ، وللمخربين الذين عاثوا فى أرض غيرهم فسادا ـ أن يطلبوا شيئا أيا كان هذا الشىء ، فإن مؤدى ذلك أن الأمم المتحدة لا تفرق بين المجرم والبرىء ، ولا بين المعتدى والمعتدى عليه ، وأن منطق هذه المنظمة الدولية ، هو منطق انجلترا وفرنسا الذى سوغ لهما فى غير حياء ولا تأثم أن يقولا : إن إسرائيل هاجمت مصر ، فمنعا للاضطراب فى الشرق الأوسط ، وحماية للملاحة فى القناه ، سنضرب مصر ، وسنتخذ من إسرائيل حليفا نمده بالسلاح والطائرات والطائرين . . .

ووجه الخطر أيضا أن الدول التى تسيغُ هذا الكلام وتقبلُه ، أو تفكرُ فيه كأنما هو شىءٌ جديرٌ بالنظر ، هى دول قوية تحسب أن قوتها وسلاحها يحميانها من شر النتائج السيئة التى قد تصيبها فى المستقبل ، سواء أكان قريبا أم بعيداً . فالقوة لم تكن يوما ما عنصرا ثابتا من عناصر الحياة ؛ لأن الحياة تتحركُ وتتطورُ وتسيرُ ، وهى الآن ـ بسبب ما دخل عليها من عوامل التغير والتحرك السريع ، مثل انطلاق الطاقة الذرية ـ تتحول وتتغير صورتها فى سنين معدودة ، مما كان الوصول إليه يحتاج إلى قرون طويلة . فبريطانيا سلخت قرنا أو قرنا ونصف قرن لتصبح قوة دولية بعد زوال قوة أسبانيا ثم قوة البرتغال

على حين استطاعت الهند مثلا أن تكون قوة دولية فى أقل من عشر سنين . كما قفزت ألمانيا بعد كمال وحدتها فى أعقاب الحرب السبعينية إلى الصف الأول فى بضع سنين ، وأصبحت قوة حربية وبحرية تهدد أصحاب السيادة على البحار ، وفى سنين قليلة تحولت بريطانيا إلى دولة مدينة تعيش على المعونات ، وتعرض قواعدها الحربية للإيجار .

فليتدبر الأقوياء هذه الحقائق كلها ، قبل أن يتصرفوا على أساسٍ من القوة : قوة السلاح وقوة المال .

أما المثل الثانى ، فلا يقوله أهل إسرائيل ، بل يقوله أهل مصر ، فمن أمثالنا الجميلة « يضربنى ويطلب كرا إيده » والحق أننى كنت أسمع هذا المثل فلا يعجبُنى ؛ لأنى لم أكن أتصور أن الجبروت والظلم يبلغ بواحدٍ من الناس المبلغ الذى يطلبُ معه ممن يضرب به مكافأة أو أجراً على التعب الذى تحمله فى رفع عصاه والنزول بها على جسم ضحيته ، إلا أن ميزانية جزيرة قبرص التى تضعها السلطات البريطانية أقنعتنى بأن هذا المثل مطابق لما تجرى عليه الأحوال فى بعض الدول ، فتكاليفُ حالةِ الطوارئ فى قبرص ، أى تكاليف عمليات القمع ، ومنع التجول ، ونَصب المشانق ، والجلد ، والمحاكمات العرفية ، والتفتيش المفاجئ ، وإعدام من يوجدُ معه مسدسٌ أو بندقية ، استنفدت هذه التكاليف

بضعة ملايين من الجنيهات ، فقررت الحكومةُ البريطانيـة أن تلتزم غاية ما يقضى به العدل ، فقسمتها مناصفة بينها و بين أهـل قبرص . فالقبرصيون لن يتكلفوا وحدهم بمصارِيف إقامةِ المشانق التى تنصبُ لأبنائهم ، ولا بأتعاب الجلادين الذين يعلقونهم فى حبال تلك المشانق ، بل سيدفعون نصف هذه التكاليف فقط ، وهو أمر لم يكونوا يطمعون فيه ،ولا شك أنهم سيشكرون من أجله بريطانيا العادلة التى تدخل إلى الدول المتأخرة لتمدّنها ولتعلمها أصول الحضارة الحديثة . . . ومنذ الآن لن يبكى القبرصى حين يساق إلى المشنقة ، فانه لن يدفع إلا نصف تكاليف شنقه ! ! ! .

خرافات تستحق التعليق

بعد جدل طويل ، واتصالات معقدة ، وبعد قرارات من الأمم المتحدة بلغت ستاً أعلن ـ ونحن نكتب هـذه السطور ـ أن إسرائيل قبلت أن تنسحب من قطاع غزة ، ومن نقطة شرم الشيخ ، ولـكن خلال الأزمة الناجمة من رفض إسرائيل الإذعان لقرارات الأمم المتحدة بوجوب انسحابها ، قيلت بعض أقوال تدل على أن ميثاق الأمم المتحدة ، ووظيفتها لاتزال غير مفهومة جيداً ، وقد يكون هـذا شراً ، ولـكن هناك أسوأ من هذا الشر ، وهو أن يكون الميثاق مفهوما ، وأن تـكون وظيفة الأمم المتحدة معروفة ، ومع ذلك يحاول بعض الناس أن يتجاهل مبادىء الميثاق ، ورسالة الهيئة التى أقيمت لتنفيذ هـذا الميثاق ، ورعاية أحكامه .

ومن بين الأقوال الخطيرة التى أذيعت خلال تلك الأزمة مانشرته جريدة النيويورك تايمز تعبيرا عن أملها فى إعطاء إسرائيل الضمانات التى كانت تطلبها كشرط لجلائها عن مصر ، وقد فسرت الجريدة أملها

هذا بقولها : إنه من غير المنطق أن تعوض مصر لخسارتها الحرب ، وأن تعاقب إسرائيل لكسبها . وختمت الجريدة قولها بأن صداقة العرب لاتستحق أن تشترى بالظلم والدسائس .

هذا مثل من الأمثلة على العقلية التى تريد أن تهبط بالأمم المتحدة إلى مستوى « الحكم » فى مباراة رياضية ، فالحكم فى المباراة الرياضية لا ينظر إلا إلى اللعب الذى يراه أمامه ، ولا يتجاوزه إلى ما سبق المباراة ، ولا الطريقة التى أحضر بها اللاعبون إلى الملعب ، ولا إلى العناصر الروحية التى أدت إلى الكسب ، أو التى أدت إلى الهزيمة ، وهو فى نهاية المباراة يعلن أن أحد الطرفين انتصر ، وثانيهما انهزم ، ولا يشغل باله بشىء آخر .

ولكن الأمم المتحدة خلقت لتمنع نشوب الحروب ، لا لتهنئة المنتصرين ، ولمنحهم الجوائز ؛ ولتقضى على العقلية القديمة التى كانت تعتبر الحروب لونا من المبارزة بين الحكومات والشعوب ، بغض النظر عما ينجم عنها من مآس وكوارث لايزول أثرها إلا بعد أجيال طويلة. والسبيل العظمى التى تستطيع الأمم المتحدة أن تصل بها إلى هذه الغاية الرفيعة التى تمنتها الشعوب طويلا ، هى أن تعاقب المعتدين ، وأن تؤكد لهم بما لا يدع مجالا لأدنى شك ــ أن الاعتداء لا يجزى ، وأن

الأمور السابقة على ذلك الاعتداء يجب أن تعود كما كانت ، فإذا كان لأحد مطالب أو شكاوى فعليه أن يسلك الطريق القانونى الذى رسمته أحكام ميثاق الأمم المتحدة ، فيعرض دعواه على الجمعية العامة ، أو على مجلس الأمن ، وأن يستميل الرأى العام بالحجة والبرهان ، فإن أخطأه الحظ ، ولم ينجح ، واصل سعيه المرة بعد المرة ، حتى يؤمن القضاء بعدالة القضية ، أو حتى يؤمن هو ببعد قضيته عن الحق والقانون .

ولا نحسب أن هناك قضية ـ أعلن فيها الرأى العام العالمى رأيه ، وأصدرت فيها محكمة العالم السياسية الكبرى ـ أى الأمم المتحدة ـ أحكامها ـ مثل قضية الاعتداء الإسرائيلى على مصر فلقد استهجنت الأمم المتحدة هذا العدوان وهو لا يزال فى أطواره الأولى وأمرت بإيقافه ، و بعد إيقافه أمرت بسحب كل الجيوش المعتدية ، ثم أمرت بعد ذلك بسحب البقية الباقية من تلك الجيوش ، وهى الجيوش الإسرائيلية فى قطاع غزة ،ومنطقة شرم الشيخ ، فلو كانت الأمم المتحدة قد أنشئت لتوزيع الجوائز على المنتصرين فى الحروب ، بغض النظر عن الأساليب التى يتبعونها لتحقيق الانتصار وانعدام الأسس الخلقية

والروحية للحروب التى تشنها ـ لما كانت هناك حاجة اقرار وقف القتال، ولما أحست إسرائيل بوجوب تنفيذه .

ولو أخذنا بنظرية النيويورك تايمز لا ختفت غدا دول كثيرة تعتبر من الدول الكبيرة من خريطة العالم ؛ إذ يوجد فى هذا العالم دول أقوى منها مسلحة بالأسلحة الذرية والقنابل الهيدروجينية ، ولاقتصر واجب الأمم المتحدة على التصفيق للدول المنتصرة ، ومنحها الجوائز التى تستحقها بفضل تملكها لكمية أكبر من أسلحة التدمير الجماعى .

وإن من الخطأ أن نتصور أن إلزام إسرائيل بالانسحاب والإذعان لقرارات الأمم المتحدة من قبيل التودد للعرب ، أو لكسب مودتهم . فالأمر ليس سوى إنزال حكم القانون المجرد على واقعة معينة نوقشت مناقشة قضائية مجردة ، لتؤمّن الناس على أرواحهم وممتلكاتهم ، ولتقضى على منطق القوة والعدوان .

***

ومن الأقوال التى تستحق التعليق أيضا ما نشرته جريدة نيوزويك ، من أن للملك سعود والأمير عبد الإله وشارل مالك ، أفهموا الرئيس أيزنهاور أن الرئيس عبد الناصر سجين لثلاثين أو أربعين شخصا مسيطرين على الجيش والصحافة والراديو وكثير من الأعمال

الحرة ، وأن الرئيس جمال عبد الناصر ، سيتخلص من هذه التأثيرات الشيوعية .

وقد قطع مؤتمر الأربعة الكبار الذى عقد أخيرا فى القاهرة – كما قطعت القرارات التى صدرت فى ختامه – بعدم صحة مثل هذه الاستنتاجات . فالشكوى من تأثر الحكم فى مصر بالاتجاهات الشيوعية لم تسمع إلا بعد سحب تمويل السد العالى ، ثم تأميم شركة قناة السويس . وقد كان الغرب يتعامل مع مصر ، على أساس أن سياستها سليمة ، وأنها لا تستوحى سوى اعتبارات المصلحة القومية المعقولة والمعتدلة أيضا ، وأنها دولة قائمة فى الميدان العالمى بالتزاماتها الدولية ، ومنذ اليوم الذى سحب فيه تمويل السد العالى بدأت حملة واسعة النطاق لتبرير هذا التصرف ، وقد كان من أبرز سمات هذه الحملة أن مصر تخضع للتوجيه الشيوعى ، أو تتجه نحوه اتجاها حادا . والذين يقولون هذا يعلمون أن فى مصر قوانين تمنع على وجه حاسم الدعاية المذهبية الشيوعية ، وأن كل تجمع يقصد منه تنظيم هذه الدعوة ، أو تغيير نظام الحكم لحسابها يعاقب بعقوبات شديدة ، بل يعلمون فوق ذلك أن أحكاما صدرت بمقتضى هذه القوانين على أشخاص غير قليلين ، وأن هذه الأحكام تُنفذ عليهم .

والذين يعلمون هذه الحقائق عن مصر ، يعلمون أيضا أن الحزب الشيوعى قائم قانونا فى إسرائيل ، وأن له نوابا فى الكنيست ، وأن من حقه أن يؤمل - إن آجلا و إن عاجلا - فى الوصول إلى الحكم فيها .

على أن من الأخطاء التقليدية لسياسة بعض الدول الغربية فى تناولها لشئون الشرق عموما والشرق الأوسط خصوصا - نسبة الوطنيين الذين يحاربون الاستعمار ، أو الذين يطالبون بتحقيق أمانى بلادهم الوطنية ، إلى معسكرات مناوئة لتلك الدول . فالوطنيون فى مصر ، خلال الحرب العالمية الثانية كانوا يعتبرون من الفاشيست ، فلما زالت الدول الفاشيستيه ، اعتبر هؤلاء أنفسهم من الشيوعيين . ولا ينجم عن الإصرار على ارتكاب ذلك الخطأ سوى إحداث فرقة بين الغرب و بين الحركات الوطنية ، تزيد فى الهوة القائمة بينهما اتساعا ، على حين لو نظر إلى زعماء تلك الحركات النظرة المنصفة ، لاعتبروا معبّرين عن أمانى شعوبهم . ولا بأس من اعتبار هذا التعبير متطرفا ؛ فالمتطرفون موجودون فى كل معسكر ؛ فهم موجودون بين المحافظين وجودهم بين اليساريين ، وحتى بين أحزاب الوسط .

ولعل كثيرين من كبار الساسة لا يملكون رد ابتسامة ترتسم على شفاههم حينما يذكرون كيف كانوا يصفون (نهرو) بأنه زعيم الهند الأحمر ، وهو اليوم يتلقى أشد الحملات وأقساها من الأحزاب اليسارية فى بلاده ، ومن بعض المعتدلين الذين ينقمون عليه أنه باق فى الكومنولث البريطانى .

مفارقات ومغالطات

لايجادل أحد فى أن ميناء بور سعيد من أهم موانئ العالم ، وأن التجارة التى تمر به من الشرق إلى الغرب ، ومن الغرب إلى الشرق ، لاتكاد تمر بميناء آخر .

ففى العام الواحد يمر به أكثر من ثلاثة عشر ألف سفينة ، تحمل مايزيد على مائة مليون من الأطنان .

وكان هذا القدر الهائل من التجارة ، وهذا العدد الكبير من السفن كفيلين بأن يجعلا من بورسعيد المدينة ، و بور سعيد الميناء ـ تحفة تزين شاطئ البحر الأبيض المتوسط ، وتزرى بغناها ، وحسن استعدادها ، وجمالها على كل موانئ هذا البحر العظيم . ولكن بور سعيد كانت ميناء متخلفا ، فإلى أن وقع التأميم فى السادس والعشرين من يوليه فى العام المنصرم ، كانت بور سعيد بلا أرصفة لرسوّ البواخر ، ولذلك كانت إجراءات الشحن والتفريغ تتم فى عرض البحر ، وفقا لأساليب عتيقة .وقد كان هذا النقص الفاحش صورة للأسلوب الذى كانت تؤدى به الشركة

المنحلة التزاماتها نحو جميع الدول والأمم التى تستغل القناة ، وتنتفعُ بها - وهى صورة فى الوقت نفسه للأسلوب الذى اختارته الشركة لتؤدى به التزاماتها نحو مصر التى أنفقت على القناة أكثر ماصرف ، فى شقها و بنائها . . فميناء بور سعيد كان يجب أن يكون ميناء من الطرز الأول ، وليس للشركة عذر فى إهمال الميناء ، والاحتفاظ به فى هذه الصورة المتأخرة التى لاتساير التطورات الضخمة فى دنيا الهندسة والملاحة . ولا عذر للشركة ؛ فلقد قفز ما تجبيه من رسوم من مليون جنيه و١٠٠ ألف جنيه فى سنة ١٩٢٩ إلى اثنين وثلاثين مليونا فى سنة ١٩٥٥ ، كما قفز مجموع الأطنان التى كانت تمر بالميناء من ثمانية وعشرين مليونا فى سنة ١٩٢٩ أيضاً إلى مائة مليون وسبعة من الأطنان فى سنة ١٩٥٥ ، كما قفز عدد المسافرين الذين مروا بالقناة من اتجاهيها من ثلثمائة ألف راكب فى تلك السنة إلى أكثر من نصف مليون فى سنة ١٩٥٥ كذلك .

وقد انفردت قناة السويس فى سنة ١٩٥٥ بنقل ٧٠ مليونا من أطنان البترول أى نحو نصف إنتاج بترول الشرق الأوسط الذى يساوى بدوره ثلث إنتاج بترول العالم كله . فالخير كان يتدفق على هذه الشركة تدفق السيل ، وكان أبسط ماتقضى به البديهة أن يظهر آثار هذا الخير على الميناء الذى يشهد حركة هذا الذهب ذهاباً و إياباً ، ولكن الشركة

أبت إلا أن تكون بور سعيد بأرصفتها العتيقة ، و بوسائلها الملاحية والهندسية المتخلفة المتأخرة ـ عنوانا على ما أصاب المصريين جميعاً من غبن وسوء معاملة على يدى الشركة . ولم يقتصر إهمال الشركة المتعمد على ميناء بور سعيد ، فقد أهملت الشركة التزامات أخرى نصت عليها الفرمانات المنشئة لها . فمثلا كان من تلك الالتزامات الرئيسية أن تنشئ على بحيرة التمساح ، ميناء داخلياً صالحاً لاستقبال أكبر السفن حمولة ، الأمر الذى كان يستتبع إعداد القناة نفسها من بور سعيد إلى السويس ، بحيث تكون دائما صالحةً لمرور أكبر السفن حمولة ؛ الأمر الذى لم يحدث حتى أممت الشركة .

و إن خيال الإنسان ليصيبه الإعياء إذا ما حاول أن يرسم الصورة التى كان يمكن أن تكون عليها بور سعيد لو أنها لقيت بعض ما تستحقه من العناية ، وهو لا يصدق أن كل هذه السفن كانت تمر بها حاملة ملايينَ الأطنانِ من البضائع مع مئات الألوف من المسافرين ، من كل صقع ومن كل جنس ومن كل لون . إلا أن العناية ببور سعيد لو تمت لكانت فى الواقع عناية بمصر وأهل مصر ، وعناية بالملاحة الدولية ، والشركة لم تقم فى واقع الأمر لتحقق شيئا من هذا ، فهى لم تدخل سعادة الناس ورواج التجارة الدولية فى حسابها ، كما لم تدخل

فى هـذا الحساب رفاهية المصريين ، وتقدمهم وارتقاء مستواهم ؛ لأن القناة لم تـكن أبداً سوى وسيلة من وسائل التوسع الاستخرابى ، وأداة من أدوات السياسة والحرب . لذلك بقيت مشروعات تحسين القناة فى أضيق نطاق ، حتى كانت سنة ١٩٥٥ ، إذ نشرت إحـدى الصحف الهندية نبأً مؤداه أن شركة القناة تدرس مشروعات تحسين كبيرة ، فأثار هذا النبأ كل شك ؛ إذ كان المعروف للجميع أن السنوات الباقيـة من امتياز الشركة لا تزيد عن اثنى عشر عاما ، وقد مرت الأعوام الـكثيرة متوالية ومتلاحقة دون أن تبـدى الشركة اهتماماً بتحسين مرفق الملاحة فى القناة ، ولا بتحسين موانئ القناة ، ولا بتنفيذ التزاماتها ، فأدرك كل مطلع على أساليب فرنسا و بريطانيا أنهما تنتويان أمرا منكرا فى شأن القناة ، و بعبارة أخرى تنتويان ألا تُسلما بانتهاء امتياز الشركة فى سنة ١٩٦٨ ؛ لذلك ليس عجيباً أن نسمع هذه الأيام من مديرى الشركة المنحلة حديثاً عن التحسينات التى يجب أن تدخلَها مصر والتحسينات التى كانوا هم يفـكرون فيها ، فـما دامت الشركة قد أفلتت أرباحُها من أيديهم ، وما دامت القناة قد عادت إلى أصحابها ، ولم تعد سلاحاً يحاربون به ، ويكسبون باستغلاله ملايين الملايين ، فلا بد من أن يظهروا فى ثوب الحارس الأمين على مصالح المنتفعينَ

بالقناة ، وفى صورة الداعين إلى تحسين هذه القناة .

على أنه مما يشبه هذا الـكلام فى معناه ومبناه ، هو حديث الغرب عن وجوب فصل القناة عن السياسة ، كأن أحداً غير هؤلاء المتحدثين هو الذى زج بالقناة فى السياسة ، وجعلها أداةً من أدواتها . لقد رفضت كلٌ من انجلترا وفرنسا أن ينظروا إلى قناة السويس كممر مائى ، يصل الشرق بالغرب ، ويوفر على التجارة الدولية زمنا طويلا وجهدا ضخما ، واعتبرا القناة ، وهى لا تزال جنيناً فى ضمير الغيب ـ موقعاً استراتيجيا فى حروبهم ، وأداة غلبة وسيطرة لمن يظفر بها منهم ؛ لذلك حاربتها بريطانيا حينما كانت تتبناها فرنسا ، وأعلنت أنها لن تسمح أبدا بتنفيذ هـذا المشروع وأرهبت سعيداً ، وسلطان تركيا ، وامبراطور فرنسا ؛ ليـكفوا عن تشجيع المشروع والوقوف إلى صفه ، واتهمت دلسبس بأنه أفاقٌ ونصابٌ ومهرج . ولما نفـذ المشروع على الرغم من معارضتها العنيفة ، ومن حبائلها ودسائسها ومؤامراتها ، أمرت فى ذلك الحين سفنها بمقاطعة القناة و بالمرور حول رأس الرجاء الصالح كما تفعـل ، مع ما فى ذلك من زيادة فاحشة فى التـكاليف وفى الزمن . فلما سقطت أسهم القناة ، التى كان يعرضها الخديو اسماعيل ، فى يدها أصبحت القناة

فى يوم وليلة فى نظر بريطانيا ممراً دوليا مائيا هاما ، وعموداً فقريا للملاحة العالمية ، وحلقة فى سلسلة المواصلات البريطانية .

فلما احتلت بريطانيا مصر كرهت أن تسمع فى موضوع قناة السويس أى لفظ له علاقة بالدولية أو التدويل ، وأخذت تدافعُ وتنافحُ عن حق مصرَ المطلق فى إدارةِ القناة والسيطرة عليها ،واعتبرت إشراف الدولِ على إدارة القناة منطويا على مساس خطيرٍ بحقِ مصر ، وباستقلالِها و بسيادتِها . ولما آنست فى إحدى الحكومات المصرية ضعفا فى سنة ١٩١٠ ، وظنت أن التغرير بالرأى العام المصرى سهل ميسور ،فكرت فى أن تمد امتياز شركة قناة السويس ٤٠ سنة أخرى، مدعيةً أن منافسةَ قناة بناما لقناة السويس ستقضى على قناة السويس ، وستضعفُ من قيمتِها الملاحية ، كما ادعت أن دخلَ القناة يتناقص ، وأن الدول ستطالب بجعلها ممراً حرا أشبه شيء بالبحار المفتوحة . كل ذلك لتهون على مصر التفريط فى القناة، وما كادت الحرب العالمية الأولى تعلن حتى سدتْ بريطانيا القناة فى وجه أعدائها غير مكترثة بالحياد المنصوص عليه فى اتفاقية سنة ١٨٨٨ ، ولما ثارت الحربُ الإيطاليةُ الحبشيةُ أرادت أن تمنعَ السفنَ الإيطاليةَ من الملاحةِ فى القناة ، وهكذا كانت القناةُ فى كل دورٍ من أدوارِ الحياة الدولية ، وفى كل طور من

أطوار حياة القناة نفسها ـ أداةً سياسية ، تستغلها بريطانيا وحليفاتُها ، دون أن يفكروا فى المصالح العالمية ولا فى رخاء الناس ، ولا فى أمنهم أو سعادتهم . وفصلُ القناة عن السياسة هو ما تدعو إليه مصر ، بل ما تدعو إليه مصلحة العالم كله . ولكن ما هو المقصود بهذا الفصل ؟ أهو انتزاعُ القناةِ من أرض مصر ، ومن سيادةِ مصر ، وإخضاعُها لشهوات الدول المتعارضة ولمنافساتها التى لا تنتهى ؟ . إن ذلك هو إغراق القناةِ فى السياسة ، وهو فتح أبواب القناة وإدارة القناة للدسائس والخلافاتِ والمؤامرات الدولية ، وهو فى الوقت نفسه مخالفةٌ للطبيعى العادى من الأمور . فقناة السويس قطعةٌ من مصر ، لا يمكن نقلُها إلى أرضِ بريطانيا أو أرض فرنسا ، فالطبيعى أن تَبسُط عليها سيادتَها ، وأن تقومَ هى بإدارتِها . كما تبسط إرادتها على كافة الأجزاء المتصلة بأرضها ومائها ، كموانيها ومطاراتها المختلفة التى تستقبلُ كل يوم البواخرَ والطائرات من كل جِنسيةٍ ، فلا يجد أحدٌ من ركابها أو بحارتِها إلا ما يجده فى أرقى الموانئ ، من التزام حرفى لأدق ما تقضى به القوانين .

إن أخطَر ما فى السياسة ، أنها تقول شيئا وتعنى غيره ، فالذين

يقولون بأفواهم إنهم يريدون أن يفصلوا القناةَ عن السياسةِ هم فى الواقع الذين يخافون أن تتحرر القناة من السياسة ، وأن تعودَ إلى أصحابها ، لتؤدى دورَها الذى خلقت له ، والذى شقيت مصرُ فى سبيلِه ، وأعنى به تداول الخير بين الناس ،وتعميمَه بحيث لا تستأثر به دولةٌ دون غيرها من الدول ، أو ينفرد به جماعةٌ دون سائر البشر .

الظلم يناقض سنة الطبيعة

أعلنت جمعية المنتفعين بقناة السويس إفلاس سياسة المقاطعة لتلك القناة ، إذ أعلن أكثر أعضائها العودة إلى استعمال ذلك الشريان الحيوى للحضارة ، الذى مدته مصر بمالها ورجالها ، وفنها وعملها وجدها وثباتها . وشرعت سفن الدول الكبرى تؤدى رسوم المرور فى القناة بالعملات الصعبة ، وهى التى تزعمت الدعوة إلى المقاطعة ، والتى تمنت أن ترى مصر راكعة على ركبتيها ، تسلم لهم القناة ، بل وتسلم لهم الذين أمموا القناة ، وبالتالى تسلم لهم نفسها ، وهى تبكى وتستغفر ، وتتوب وتنيب . وبذلك انتصر حق الشعوب على سلطان الذين يؤمنون بأن هذا العالم وطن لفريقين جد مختلفين من البشر : فريق يحكم ويسود ، وفريق يطيع ويذعن : فريق السادة ، وفريق العبيد.

ولعل القراء لا ينسون ما قلته فيما سبق أن هذه المقاطعة للقناة لم تكن الأولى فى تاريخ القناة ، ولا الأولى فى تاريخ مصر ، فقد قاطعت بريطانيا هذه القناة عقب افتتاحها فى نوفمبر سنة ١٨٦٩ ، وألزمت سفنها أن تدور حول رأس الرجاء الصالح ، مع أن الفرق فى ذلك الحين بين

طريق القناة القصير السهل المأمون ، وطريق رأس الرجاء الصالح الطويل المحفوف بالمكاره — لم يكن يقل كثيرا عن شهرين فى بعض الأحوال ، وعن شهر فى أحسن الأحوال ؛ فقد كانت المسافة بين هونج كونج ومرسيليا تقطع فى تلك الأيام عن طريق رأس الرجاء الصالح فى ثلاثة وسبعين يوما ، بينما كانت البواخر تقطعها عن طريق القناة فى سبعة عشر يوما ، وكان الفرق الزمنى للرحلة فى الطريقين بين مرسيليا و بومباى ٣٥ يوما ، ومثلها تقريبا بين مرسيليا وكولومبو ، والآن تبلغ تكاليف الرحلة عن طريق جنوبى أفريقيا الطويل ثلاثة أضعاف تكاليف الرحلة القصيرة عن طريق السويس .

مع ذلك كله أقدمت بريطانيا فى السنين الأولى لافتتاح القناة فى أواخر القرن التاسع عشر على مقاطعة هذا الطريق السهل الجميل . و بريطانيا كما تواضع الكتاب على تسميتها هى أمة أصحاب حوانيت ، يعنى أنها تحسب حساب الدرهم والدينار ، بل والدانق والسحتوت ، ولا تعرف العواطف فيما تقول ، أو فيما تفعل ؛ فهى لم تحمل تجارتها فى الماضى ما تحملت ، لأنها تكره القناة ، أو لأنها لا تحسب أن تسلم لمصر بالنجاح ، ولفرنسا منافستها فى ذلك الحين بالسبق ، إنما لأنها ظنت أنها تستطيع أن تفرض كلمتها — بفضل تجارتها الواسعة ، وسفنها

الكثيرة ومستعمراتها التى لا تغرب عنها الشمس ـ على مصر ، وعلى شركة القناة ؛ وذلك بتهديدها بالإفلاس والخسران والبوار ، فتستأثر وحدها بالقناة وقد كان مثل هـذه المحاولة تجدى لو أن مصر كانت معتدية ، أولو أن بريطانيا كانت محقة ، إلا أن الأمر كان على نقيض ذلك من كل الوجوه ؛ فمصر تـكبدت من الخسائر المادية والمعنوية ، وتحملت التكاليف المالية والأدبيـة ، وخاضت من المعارك السياسية الداخلية والخارجية ، ما كان خليقا بأن يزعزع إيمانها فى رسالة القناة ، ولـكن مصر على مر الحقب والأزمان لا تغير رسالتهـا ، ولا تتخلى عن وظيفتها ، فهى تعيش للناس ، كما تعيش لنفسها ، بل أكثر ممـا تعيش لنفسها .

إذن انتصر حق مصر على باطل المنتفعين بالقناة . وإذن سلمت هذه القوى المتألبة على مصر ، وهو حدث لا يسوغ أن تقتصر الفرحة به على مصر ؛ فإنه انتصار لـكل هذه الشعوب التى حررت نفسها ، والتى لا تزال تحرر نفسها ، والتى تشكو ظلم العدوان ، وتئن تحت أقدام الاستخرابيين الذين يعتقدون أن الله ترك لهم هـذه الدنيا ، يدبرون شئونها تارة باسم التدويل ، وأخرى باسم الرجل الأبيض ،

وثالثة باسم حماية العالم الحر من العدوان الفاشيستى أو الشيوعى ، أو الإسلامى أو الخطر الأصفر . . أىّ خطر تبتدعه عقولهم .

والحق أن الإنسان إذا قرأ كشف أسماء الدول المنتفعة بالقناة هاله أن تجتمع هذه الدول الخمس عشرة على مصر ، ودب إلى نفسه خواطر ملأها الخوف ؛ إذ أنّى لمصر أن تواجه هذه القوى كلها ، وأنى لها أن تصاولها وتنازلها ، وأن تطمع آخر الأمر فى أن تردها إلى الصواب ؟ !

ولكن ما حدث فى سنتى ١٩٥٦ ـ ١٩٥٧ الميلاديتين ، هو ما يحدث دائما فى التاريخ الطويل للبشرية .

فكل مقاطعة ظالمة لا تلبث موجتها أن تنحسر ، ولا يلبث سهمها أن ينكسر ، ولو كان على رأس تلك المقاطعة الأقوياء ، ولو سلطت تلك المقاطعة على الضعفاء . أما لو نظم أصحاب الحق من الصغار الفقراء المقاطعة ، وجمعوا كلمتهم عليها فالنصر لهم ، والنصر من عند الله يؤتيه من يشاء .

ولعل القراء يذكرون كيف استطاع الصيادون والبحارون من حوارىِ المسيح أن يغزوا العالم بدينهم : العالم المسلح الغارق فى لذائذه ، والمغتر بجحافله ، الذى ينظر إليهم كما ينظر إلى الحشرة ، ضاحكا من ضعفهم ، ساخرا من فقرهم . ولعلهم يذكرون هذه القصة الرائعة الجميلة

قصة الصحيفة التي وقعها كفار قريش ، وتواصوا فيها على مقاطعة محمد وأصحابه ، مما ألجأ رسول الله وصحابته من الضعفاء والفقراء إلى الاحتماء بشعب من شعاب الجبل ظاهر مكة ، حيث عانوا الحرمان ألوانا ، وكان من ألوانه هذه أنهم كانوا يقضون الأيام ، لايجدون مايتبلغون به ، أو يسد رمقهم ، بل إن كفار قريش حرموا على محمد وأصحابه أن يكلموا أهل مكة ، أو أن يختلطوا بهم ، ولكن محمدا كان ينتهز فرصة الأشهر الحرم التي يقف فيها القتال ، ويكف الناس خلالها عن الخصام ، فينزل من شعاب الجبل إلى مكة يبشر بدعوته ، فيشعر بعض قريش بفداحة ما ارتكبوا ، وسوء ماقارفوا ، وأخذ ضمير الجماعة يتحرك شيئا فشيئا ، حتى نطق على لسان زهير بن أمية ، فطاف بالكعبة سبعا ثم نادى : يأهل مكة ، أنأكل الطعام ، ونلبس الثياب ، وبنو هاشم هلكى لايبتاعون ، ولايبتاع منهم ؟ . والله لا أقعد حتى تشق هذه الصحيفة القاطعة الظالمة . وما كاد أبو جهل يسمعه حتى صاح به : كذبت والله لاتشق ، فتصايح هشام بن عمرو وآخرون يؤيدون زهيرا ، ويكذبون أبا جهل ، وأدرك أبو جهل أن الرأي العام تحول ضده ، فأشفق أن يواجه ذلك الرأي العام القوى المكتمل اتحادا وعزما ، فتراجع .

وفى كل مجتمع يوجد زهير بن أمية ، يبصر المجتمع كله بقبح

ما يرتكب ، و بسوء ما يعمل . وفى كل مجتمع يوجد أيضا أبو جهل الذى يركب رأسه ، و يصر على الشر ويتمسك به ، ولا يحب العدول عنه . فانتصار مصر ، هو من قبيل انتصار هذه الجماعة الصغيرة المؤمنة منذ أربعة عشر قرنا : هذه الجماعة التى أراد الكفر أن يخيفها ، وأن يخضعها بالمقاطعة الاقتصادية والسياسية، وأن يحرم عليها المتاجرة والمبادلة . وقد كانت قريش غنية قوية كغنى بعض الدول وثرائها ، وكانت صاحبة كلمة نافذة فى المجتمع العربى نفوذ كلمة الدول التى تأتمر بنا ، وتحرّض الناس علينا ، وتنظم مقاطعتنا ، وفرض الحصار علينا . ولكن قوة قريش لم تغنها شيئا أمام أحرار الرسول وصحابته وأمام حقهم البسيط الظاهر ، كما لم تغن قوة الدول الكارهة لنا ، الطامعة فينا ، وكما لن تغنيها فى المستقبل ، فى المعارك التى تنظم والمؤامرات التى تدبر وتحاك . انظر أيها الأخ الكريم إلى لون آخر من المقاطعة . . انظر إلى مقاطعة غاندى لبريطانيا وحكومة بريطانيا وتجارة بريطانيا . لقد تحول الهنود بفضل الحكم البريطانى إلى قطيع من البشر سلبهم الاستخراب صفات الناس ، فلما خرج من بين صفوفهم غاندى ، ليدعو إلى المقاومة السلبية وليطبق مبدأ (الاهمسا) « أى الحب » ، لم يحفل الإنجليز به كثيراً ، ولم يتصوروا أن المقاومة السلبية التى يدعو إليها ،

وأن العصيان المدنى الذى ينظمه ويلقن الهنود دروسه ـ سيقفل لهم مصانع لا نكشير وما نشستر ، وأنه سيقلب لهم الأمور فى بورصات ليفر بول وغيرها رأسا على عقب . وكانت بريطانيا على حق ، فقد مضت على حكمها الطويل حقبا وعقوداً من السنين لم يكن الفقراء يستطيعون خلالها أن يجمعوا لهم كلمة ، أو يوحدوا صفا ، أو ينفذوا أمرا . واستمرت المقاطعة الهندية : بدأت ضعيفة صغيرة ، ثم اتسع نطاقها ، ثم طم موجها ، وتوالى زحفها ، فأسقط فى يد الإنجليز ، ولم يجدوا إلا أن يدعوا غاندى أثناء وجوده فى مؤتمر من مؤتمرات المائدة المستديرة : اللعبة المحببة لبريطانيا ، أن يدعوه ليزور مصانع غزل ونسيج القطن وكيف تعطلت ، وسادها خراب قاتم ، وأروه بيوت العمال المتعطلين ، ليستدروا عطفه ، وهم يعلمون كيف يحب الفقراء ، وكيف يكره أن ينزل الإنسان بأخيه الإنسان الأذى ، فما كان منه إلا أن أجابهم الجواب الطبيعى الذى لا ثانى له ، قال لهم فى مثل هذا الموقف : « لقد أقفلتم أنتم دور هؤلاء المساكين ، وخربتم بأيديكم مصانعكم » .

وما فعله الاستخراب منذ أكثر من عشرين عاما فعله فى أزمة القناة ، وقد عانى هذا الاستخراب ببلاهته ، وقصر نظره ، وسوء تدبيره لأموره ، خلال أزمة القناة ـ ويلات لم يعان مثلها فى الحرب العالمية

الثانية ؛ فهو لم يقفل المصانع ولم يتفاقم شر البطالة فى بلاده ، ولم تزدد موجة الهجرة من انجلترا إلى استراليا وكندا فحسب ، بل إنه فوق ذلك عانى الذل والهوان ؛ فقد كانت بريطانيا وفرنسا خلال الحرب تُدقان بمدافع وقنابل هتلر ، ولكن كانت أمريكا إلى جوارهم تدفع عنهم ، وروسيا تصد سيل الزحف عن حضارتهم. أما هذه المرة فقد لذ لأمريكا أن تريهم مرارة الخوف وهوان الذل ؛ ليدينوا لها بالولاء ، ويمدوا أيديهم يستجدون الدولارات ، ويستجدون البترول ، ويلتمسون قروضا جديدة ، ويطلبون تأجيل القروض القديمة .

هذه هى دروس وعاها الاستخراب فعدل عن المقاطعة ، ولكن هل استفاد من هذا الدرس عظة أكبر وأنفع ؟ وهل أدرك قوة الشعوب حينما تكون على حق ؟ . هل عرف ضعف القوة المادية حينما تكون على باطل ؟ هل أدرك السلطان أنه قد ينتصر بعض الوقت ، وقد يهزم بعض الناس ، ولكنه لن ينتصر طول الوقت ، على كل الشعوب حينما تجتمع كلمتها على حق ؟

لعل الغرب يعى هذا الدرس ويفهمه ولعله لا ينساه ، فإن فى ذلك خيرا عميما له وللناس أجمعين ..

•••••••

مطبوعات الإدارة العامة للشئون الثقافية

بوزارة الإرشاد القومى

ا — السلسلة الثقافية

١ — تاليران « عقائد وشهوات »

هذا هو الجزء الأول من الكتاب القيم الذى ألفه «د . ف كوبر» وترجمه الدكتور محمد أبو طائلة ، وقد تناول فيه المؤلف شخصية رجل سياسى من طراز عجيب ، كان قسيساً فاجراً وعربيداً مقامراً ووزيراً مرتشياً ، ولكنه أوتى من الدهاء مارفعه على جميع معاصريه من الساسة.

(٢٣٥ صفحة) الثمن ١٠ قروش

الناشر ـ مكتبة الأنجلو المصرية .

٢ — تاليران « عالم مضطرب » :

وفى الجزء الثانى من هـذا الكتاب يصور المؤلف العصر الذى عاش فيه تاليران ، وموقفه من نابليون وكيف عارضه عقب انتصاراته ، ونادى بحفظ السلم فى فرنسا وأوروبا .

(٢٤٦ صفحة) الثمن ١٠ قروش

الناشر ـ مكتبة الأنجلو المصرية .

٣ — الثورة الايرلندية :

هذه قصة صراع أمة للتحرير من النير البريطانى ، يرويها الدكتور على الراعى ناقداً ومحللا ومقارناً .

(١٩٠ صفحة) الثمن ١٠ قروش

الناشر — دار الفكر العربى .

٤ — ثورات وعروش :

فى هذا الكتاب ألوان رائعة من الكفاح الشعبى بين الحاكمين العابثين وبين الشعوب التى تضطرم فى قلوبها نار الحرية ، كتبها بأسلوبه الرصين الممتع المرحوم الأستاذ حسن الشريف .

(٢٣٢ صفحة) الثمن ١٠ قروش

الناشر — مكتبة النهضة المصرية .

٥ — الجزائر الثائرة:

كتاب ألفه الكاتبان الفرنسيان « كوليت وفرنسيس جانسون » وتولت الإدارة الثقافية تعريبه ، وهو يكشف عن المظالم والفظائع التى ارتكبها الفرنسيون فى الجزائر منذ بداية غزوها فى القرن الماضى حتى الوقت الحاضر .

وقد حرص المؤلفان على تأييد ما يقولانه بأسانيد رسمية تبين ما أصاب الشعب الجزائرى المكافح من ضيم فى الميادين الاقتصادية والاجتماعية والسياسية على يد الاستعمار الفرنسى .

(١٩٢ صفحة) الثمن ٥ قروش

الناشر ـ مكتبة نهضة مصر

٦ — دراسات فى الشرق الأوسط :

كتاب يتناول الشرق الأوسط من حيث جغرافيته ، وبتروله ومناطقه ، وأهمية الشرق الأوسط الاستراتيجية ، والتزاحم على النفوذ فيه ، واستعماره قديما وحديثا ، ومشكلة الأحلاف . لمؤلفه الأستاذ سيد أحمد عثمان .

(١٠٢ صفحة) الثمن ١٠ قروش

الناشر ـ مكتبة نهضة مصر .

٧ — كفاحنا ضد الغزاة :

أول كتاب من نوعه يتناول كفاح الشعب المصرى للغزاة فى جميع العصور ، وفيه مشاهد رائعة من البطولة والفداء ، كتب عن العصر الفرعونى فيه الدكتور عبد المنعم أبو بكر ، وعن عصر البطالمة الدكتور

محمد عواد حسين ، وعن عصر الدولة الرومانية الدكتور عبد اللطيف أحمد على ، وكتب عن القرون الوسطى الدكتور محمد مصطفى زيادة .

أما الفصل الأخير منه فقد تناول تاريخ العصر الحديث بإسهاب ، وهو بقلم الدكتور أحمد عبد الرحيم مصطفى .

وقد اختتم الكتاب بتعقيب بقلم الأستاذ فتحى رضوان وزير الإرشاد القومى عنوانه « هـذا الشعب » تناول فيه شخصية الشعب المصرى بتحليل دقيق ، ووصف صادق يميز سماته ، ويوضح معالمه ، على ضوء تاريخ مصر فى العصور التى مرت بها .

(٤١٦ صفحة) الثمن ٢٠ قرشا

الناشر ـ مكتبة النهضة المصرية .

٨ — بوليفار :

سيرة أعظم قائد أنجبته أمريكا الجنوبية ، حمل علم التحرير بها عشرين عاما ، وقاد فيها عدة حروب مظفرة ، وأطلق عليه لقب (محرر أمريكا) .

تناول فيه مؤلفه الأستاذ وديع الضبع تاريخ بوليفار بإسهاب ، وتاريخ اكتشاف القارة الأمريكية ، ودراسة العلاقات التى كانت قائمة إذ ذاك بينها وبين الدول الأوروبية وبخاصة أسبانيا ، كما تناول

الـكلام عن الحياة الاجتماعية ، والسياسة فى أمريكا الجنوبية ، وتطورات الحركات الاستقلالية بها .

(٢٧٢ صفحة) الثمن ١٠ قروش

الناشر ـ مكتبة النهضة

يظهر قريبا

٩ — سيرة ماتزينى :

من زعماء إيطاليا الخالدين ، كافح كفاحا متواصلا طوال حياته فى سبيل وحدة إيطاليا واستقلالها، ولاقى فى سبيل ذلك شدائد تغلب عليها بقوة إيمانه بحق بلاده، حتى لقد كان يخلق من اليأس رجاء، ومن الضعف قوة .

وقد ألف هذه السيرة بولتن كنج ، وترجمها عن الإنجليزية الأستاذ عبد الوهاب الحناوى .

الناشر ـ مكتبة نهضة مصر الثمن : ١٠ قروش

ب — مختارات الإذاعة

١ — مع الناس :

عشرون حديثا للأستاذ فكرى أباظة يتحدث بها إلى مستمعيه بأسلوبه الساخر ، ونقداته الاجتماعية اللاذعة .

(١٩٠ صفحة) الثمن : ٧ قروش

٢ — مطالعات :

واحد وعشرون حديثا للأستاذ عباس محمود العقاد فى شتى فروع المعرفة .

(١٥٧ صفحة) الثمن : ٧ قروش

٣ — مع الكتب :

هذه أحاديث تناولت فيها الدكتورة سهير القلماوى ألوانا منوعة من الكتب التى ظهرت بعد الثورة المصرية الحديثة ، وعالج فيها مؤلفوها نواحى مختلفة فى ميادين الفكر .

(١٥٧ صفحة) الثمن : ٧ قروش

٤ — صفحات من تاريخ الاستعمار :

فى هذا الكتاب ألوان شتى من الاستعمار ، فى التاريخ القديم والحديث ، عرضها الدكتور سليمان حزين ، فى ثلاثة وعشرين حديثا.

(١٣٧ صفحة) الثمن : ٧ قروش

٥ — عظماء الشرق :

يضم هذا الكتاب دراسات لحياة اثنتين وعشرين شخصية شرقية ، كان لها فى حياة الشرق آثار قوية فى ميدان السياسة والجهاد ، أو فى عالم الفكر ، فى العصور القديمة والحديثة .

وهذه الدراسات بأقلام الأساتذة : فتحى رضوان ، عبد الحميد

العبادى ، محمد فريد أبو حديد ، الدكتور مهدى علام ، الدكتور محمد عبد الهادى أبو ريده . (١٥٧ صفحة) الثمن ٧ قروش

٦ — صلاح الدين الأيوبى :

تمثيلية وطنية أذيعت على حلقات ، كتبها الأستاذ محمود شعبان .
(١٩٢ صفحة) الثمن ٧ قروش

٧ — فى التحليل النفسى :

مجموعة تناول فيها الدكتوران مصطفى زيور وأحمد فؤاد الأهوانى هذا الموضوع فى أحاديث ممتعة — وهما أستاذان من أساتذة علم النفس .
(١٤٦ صفحة) الثمن : ٧ قروش

٨ — الإسلام والحضارة :

تناول الدكتور محمد خلف الله أحمد فى هذا الكتاب الدور الذى قامت به الحضارة الإسلامية لهدى الإنسانية ، وقدم بعض ذخائر المكتبة العربية الإسلامية ، ثم تحدث عن بعض أعلام الفكر الإسلامى من أئمة تلك الحضارة . (١٤٩ صفحة) الثمن : ٧ قروش

٩ — الإسلام والجهاد :

مجموعة من المقالات تبين معنى الجهاد ، وعلى من يجب ، وبماذا يكون ، وضد من ، وآثار الجهاد الحق مع ذكر أمثلة رائعة من

مواقف المسلمين فى الجهاد صدر الإسلام ، والاستشهاد بكثير من الآيات القرآنية ، والأحاديث النبوية ، والمواقع التاريخية .

ألفه الأساتذة : أحمدحسن الباقورى ، وحسن مأمون ، ومحمد فرج السنهورى، والدكتور إبراهيم سلامه ، ومحمودشلتوت، وعبدالوهاب حمودة .

(١٤٤ صفحة)　　　　　الثمن : ٧ قروش

١٠ — قتال حتى النهاية :

مسرحية وطنية سياسية تمثل الحركة الوطنية فى عهد المرحوم محمد فريد ، وما قام به هو وتلاميذه والمصريون الأحرار ضد الاستعمار الغاشم ، وإحباط مساعيه فى مد أجل امتياز قناة السويس إلى سنة ٢٠٠٨ م ، وأسباب ثورة سنة ١٩١٩ م ، مع صور رائعة للحياة المصرية فى شتى نواحيها ، لمؤلفها الأستاذ محمد متولى .

(٣١٢ صفحة)　　　　　الثمن : ٧ قروش

١١ — الأسرة فى التشريع الإسلامى :

كتاب يتناول شئون الأسرة، وكيف تعيش فى ظل السعادة ، و بيان حقوق كل من الزوجين قبل صاحبه ، وحقوق كل من الأب أو الابن قبل الآخر ، والوسائل الشرعية لحفظ كيان الأسرة لمؤلفه : الأستاذ محمد فرج السنهورى .

(١٢٠ صفحة)　　　　　الثمن ٧ قروش

١٢ — من روائع القصص العالمى :

قصص مختارة من الآداب العالمية مترجمة عن الصينية ، والهندية ، والفارسية ، والنرويجية ، والألمانية ، والنمسوية ، والإيطالية ،والمكسيكية. بأقلام الأساتذة : إبراهيم المصرى ،أنيس منصور ، الدكتورة سهير القلماوى ، على الراعى ، محمود إبراهيم الدسوقى .

(١٢٨ صفحة) الثمن ٧ قروش

يظهر قريباً . . .

١٣ — تكوين مصر :

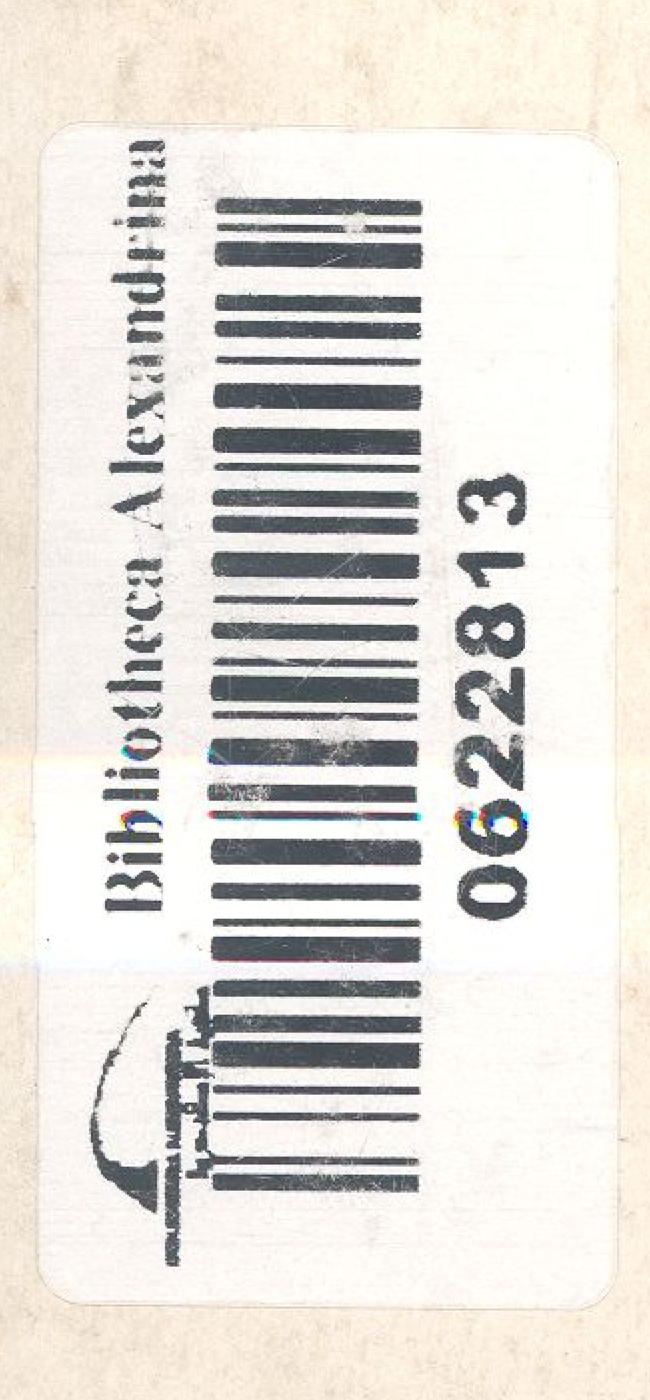
عرض تاريخى شائق لمصر فى شتى العصور والحضارات التى مرت بها منذ أيام قدماء المصريين حتى العصر الحديث ، وقد عارض فيه مؤلفه الأستاذ محمد شفيق غربال قول المؤرخ هيرودوت « مصر هبة النيل » . وأثبت بالتحقيق العلمى والتاريخى أن مصر « هبة المصريين » .

الناشر : مكتبة النهضة المصرية . الثمن ٥ قروش

وكتب هذه السلسلة جميعاً تطلب من دار الجمهورية للطبع والنشر بالقاهرة ـ شارع جلال رقم ٢٤.

طبع بدار إحياء الكتب العربية
عيسى البابى الحلبى وشركاه





الثمن ٥ ــــ

طبع بدار إحياء الكتب العربية
عيسى البابى الحلبى وشركاه